استثمار الأسلوب العدولي



تذوق النص القرآني

إعداد :

الدكتور : عيد محمد شبايك

استثمار الأسلوب العدولي

في

تذوق النص القرآني

إعداد :

الدكتور : عيد محمد شبايك

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾

قرآن كريم - الإسراء ٨٨

" إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم "

حديث شريف

المقدمــة

إن إثــارة الظاهــرة الأســلوبية للقــارئ أو الســامع – والعــدول أحــد مظاهرها– إنما تنبثق عن المفاجأة التي يحسها من انحراف تلك الظاهرة عن سياقها اللغوي في بنية النص . و « الأسلوب العدولـي » يتسع ليشمل كل تحول أو انحراف فـي نسق التعبير لا يتغير بـه جوهر المعنـى أو « البنية العميقة له » على حد اصطلاح التحويليين .

هذا التحول أو الانحراف عن النسق المثالـي للتعبير يحدث نـوعا مـن الإثـارة لـدى المتلقي نتيجة التضـاد النـاجم عن الاخـتلاف الحـادث مـن اختـراق النظام، وهو اختلاف غير متوقع لدى القارئ ، لذلك يحدث لديه لونًا من المفاجأة والاستثارة .

والـذي يجب أن ننبه إليه أن « العــدول » عن الأصل تـولـّد ذاتـي فـي اللغـة، يـرتبط بـتولـّد الأفكـار وتشـعّبها وتحاورهـا وتجادلهـا ، وأنـه لا يُحكـم بشرعية « العــدول » إلا إذا أضاف فضلاً ومزيّة .

وقد أشار أهل العلم – لغويون ونحاة ومفسرون وبلاغيون – إلى بعض ومضـاته الكاشفة ، كا بن جني والزمخشري وابن الأثير والعلوي وغيرهم ، مما يدل علـى أصـل الفكرة في التـراث ، ومن هنا كـان منطلقنا فـي البحث ، وفـي الـوقت نفسـه لـم نـُهمل الاستعانة ببعض المقولات والأفكار المحدثـة للربط بين التـراث والمعاصرة ، وإيمانـًا منـّا بأن الحاضر ينبغي أن يغير من الماضي بقدر ما يوجّـه الماضي الحاضر .

وهـناك - أيضـًا - جـهـود معاصـرة لـبعض الباحثـين الـرواد فـي هـذا الموضوع، منها :

« العـدول » أسلوب تراثي في نقد الشعر ، للدكـتور مصـطفى السـعدني ، وهـو عـن دراسة العــدول في الشعر ، لا في النص القرآني .

وبحث آخر بعنوان : فكرة « العدول » في البحوث الأسلوبية المعاصرة لعبد الله صـولة ، تـناول فيه البـاحث آراء النـقاد من أصحاب الأسلوبية المعاصـرة في العدول في الشعر خاصـة .

وثمة بحث آخر بعنوان « **أسلوب الالتفات** في البلاغة القرآنية » للدكتور حسن طبل ، أصّل فيه لظاهرة الالتفات في التراث البلاغي ، وربط بين الظاهرة ومعطيات علم الأسلوب ، وذكر بعض المواطن القرآنية التي وقع فيها التفات وحللها تحليلاً جيدًا مستعينًا بكتب التفسير واللغة والبلاغة .

ولا شك أن بحوث هؤلاء الرواد كانت بمثابة إضاءات استرشدت بها ، ولا سيما في التنظير لهذا البحث ، كما كانت حافزًا على استثمار الجهد في معايشة النص القرآني وتذوق ما فيه من أساليب عُدل فيها عن النسق المثالي ؛ لأن « الأسلوب العدولي » من الأساليب التي تتسع فيها الاحتمالات ، وتتنوع الأنماط ، ولاسيما في النص القرآني ، فهي تندّ عن الحصر ، ولا يحيط بها فهم، وليس بوسع باحث واحد أن يوفيَها حقها ؛ لأن النصوص الفذة – وعلى رأسها النص القرآني – لا يفي جمهورها بحقوقها عليهم إلا بترافد همم القرّاء على تعاورها بالقراءات المتعددة ؛ لكشف ما استتر فيها من جماليات النظم .

لهذا عقدت العزم على الخوض في هذا الموضوع « الأسلوب العدولي » وكيفية استثماره في تذوق النص القرآني .

وقد آثرت مصطلح « العدول » لسعة دلالته عن غيره من المصطلحات المرادفة ، ولأننا غالبًا ما نربط بين ظاهرة العدول وعلم الأسلوب في بيان بلاغة النص القرآني ، مع الاستعانة بكتب اللغة والتفسير والبلاغة .

وقد دعت طبيعة البحث أن أقسمه إلى قسمين : قسم للتنظير ، وقسم للتطبيق .

تناولت في التنظير (مفهوم المصطلح في التراث عند كل من اللغويين والنحاة والبلاغيين والمفسرين) ، وأتبعت ذلك بمبحث عن أسباب العدول ومقاصده .

وقدمت في قسم التطبيق عددًا وافرًا من أنماط العدول وصوره المتعددة ، مما وقفنا عليه ، وعرضنا لها مع التمثيل بالشواهد القرآنية المحللة تحليلاً أسلوبيًّا ؛ لإبراز بلاغة العدول وقيمته من خلال تأمله في سياقه والاستعانة بكتب اللغة والبلاغة والتفسير .

ثم تلا ذلك خاتمة تضمنت نتائج البحث وتوصيّاته .

والله من وراء القصد .

المؤلف

القسم الأول : التنظير للمصطلح

توطئة/ مدخل :

درجت العربية في صياغة كلامها على ما يقتضيه ظاهر الحال من المطابقة والوضوح ، لتؤدي بذلك معانيها التي ترد عليها وضعًا واستعمالاً ، وقد تعدل عن ذلك الظاهر غير عابئة بما تستوجبه سنن المطابقة في التعبير وأحكام الصنعة لا اجتراءً ولا عبثًا ، بل قصدًا منها إلى إشارة لطيفة أو ملحظ دقيق ، إذ في هذا العدول يكمن السر وإليه يكون المصير حين التفكير فيه للنفاذ إلى كنهه ومرماه .[١]

وإن المتتبع لمباحث الأسلوبية يدرك أن من أهم هذه المباحث عملية رصد انحراف الكلام عن نسقه المثالي المألوف ، أي الكلام في المستوى العادي الذي يعتمد على النحو التقعيدي في تشكيل عناصره .

فنجد اللسانيين يكشفون عن منهجين للأداء اللغوي – وفقًا لأبرز النظريات الدلالية الحديثة – ينهض أحدهما على التصريح ، ويستمد وجوده من المعنى الوضعي للغة ، وتتشكل ملامح الآخر من الإيحاء المُستشف من الاستعمالات الإبداعية .

ونجد التحويليين كـ**تشومسكي** (مؤسس نظرية النحو التحويلي) يميز بين مستويين في الجملة هما : « البنية العميقة والبنية السطحية » فالمستوى الأول هو النمط المثالي التجريدي (المقدر في الذهن) للجملة الكاملة الصحيحة نحويا ودلاليا ، أما المستوى الثاني فهو الصورة اللغوية المحسوسة (نطقا أو كتابة) لتلك الجملة ، وتلك البنية السطحية هي فرع عن البنية العميقة ، وهي في تفرعها عنها قد تتخذ أشكالا أو أوضاعا عديدة ، عن طريق إدخال بعض التحويلات الاضطرارية حينا ، والاختيار حينا آخر ، على نمطها المثالي في الذهن ، ولكن هذه الأشكال أو الأوضاع وإن تمايزت من حيث القيمة الجمالية أو الشحنة التأثيرية تظل ذات جذر دلالي واحد أو بنية عميقة واحدة .[٢]

ففي التمييز بين هذين المستويين ما يدعم تصور الأسلوب العدولي بوصفه اختيارا أو استثمارا وتوظيفا للطاقات الكامنة في اللغة : إذ إنه يمكن

---

١ مع القرآن في دراسة مستلهمة صـ ١٠٨

٢ نظرية اللغة في النقد العربي صـ ٤٨٨ ، وعلم الأسلوب صـ ١٣٠ - ١٣٦ ، واللغة والإبداع صـ ٥١ – ٥٣ ، ويُنظر : النحو العربي في ضوء الأبحاث اللغوية الحديثة لولسون بشاي . محاضرات ألقيت بكلية آداب القاهرة في ١٩٧٤/٢/٢٧ صـ ٧ ، ٨ .

تحديد هذه الطاقات وكشف أبعادها عن طريق « أنماط العدول » المتعددة ، وبذلك يصبح « الأسلوب العدولي » هو الصورة المنتقاة من بين التحويلات الاختيارية المتعادلة معها دلاليا ، والتي تعد – من هذه الزاوية – بدائل لها .[1]

ويرى **رومارشيه** : إن الأشكال البلاغية ، والأساليب البيانية إنما هي طرائق للكلام تبتعد/ تنحرف عن الطريقة الطبيعية/ العادية فهي تتمثل في بعض التحولات والأشكال التي تختلف بطريقة ما عن السبل المألوفة والبسيطة للكلام.[2]

وكأن الأسلوب العدولي يتحدد بانحرافيته عن العُرف اللغوي ، ويتكشّف ذلك عند كل أديب مبدع .

ويُفهم مما سبق أن لدينا مستويين للغة :

الأول : المستوى المثالي/ المألوف في الأداء العادي/ النمطي/ الجاري على السنن المألوف للقاعدة .

الثاني : المستوى المنحرف/ الإبداعي الذي يعتمد على انحراف الكلام عن هذه المثالية أو العدول عنها أو تجاوزها أو انتهاكها .[3]

والمستوى العادي/ المثالي هو الذي يعتمد على النحو التقعيدي في تشكيل عناصره ، كما يعتمد اللغة في تنسيق هذه العناصر . وثمرة الترابط بين ما يقول به النحاة وما يقول به اللغويون ظهور مثالية اللغة في استخدامها المألوف ، وهى مثالية افتراضية أكثر منها تطبيقية واقعية .

ولعل هذه النظرة المثالية للأداء هي التي جعلت النحاة يحددون معنى (الكلام) بما يرتبط بالعبارة ظاهرا أو تقديرا . فأما القول بظاهر العبارة فهو ما أهمهم رعاية للسلامة ، وأما التقدير فهو جَرْيٌ منهم وراء هذه السلامة ، ورعايةٌ لها حفاظا على مثالية الأداء ؛ لذلك تراهم يلجأون إلى التقدير والحذف والقول بالزيادة " تصورًا منهم أن التعبير اللغوي - مهما يكن من أمر بلاغته

---

١ الأسلوبية الحديثة . د/ محمود عياد . مقال في مجلة « فصول » . م١. ع٢ : يناير ١٩٨٢/١٩٨١ م .
٢ علم الأسلوب صـ ٣٧٢
٣ عقد الدكتور عبد الحكيم راضى فصلا بعنوان (المثالي والمنحرف) فصل فيه القول عن الانحراف عنه اللغويين والنحاة والبلاغيين في كتابة نظرية اللغة في النقد العربي صـ ١٩١ وما بعدها . وقد قام الدكتور محمد عبد المطلب بتقديم خلاصة مركزة لهذا الفصل في كتابه " بين البلاغة والأسلوبية " تحت عنوان " العدول " صـ ٢٢٣ ، وما بعدها .

الخاصة ، وتفرُّده البيـاني المطلق - يجب أن يطابق في نهاية الأمر نمطًا معينًا من الأنماط النحوية المحدودة التي يجب أن ينحوَ نحوها القائلون ... " .[1]

وإذا كان النحاة واللغويون قد أقاموا مباحثهم على رعاية الأداء المثالي ، فإن البلاغيين ساروا في اتجاه آخر من حيث أقاموا مباحثهم على أساس تجاوز هذه المثالية ، أو الخروج عليها والعدول عنها في الأداء الفني الذي يرتبط بسياقاته المتعددة (اللغوي والموقفي والسببي) وقرائن الأحوال .

إذن فالعدول عندهم ليس تجاوزًا للمثالية أو انتهاكًا لها[2] – بتعبير بعض النقاد – وإنما هو إيثار نسق على آخر أو صيغة على أخرى أو تركيب على آخر ، لما يرون فيه من إيماض يضيء للمتلقي دخيلة منشئ الخطاب (مبدع النص) .

وليس معنى هذا إنكار البلاغيين للمستوى المثالي الذي أقامه النحاة واللغويون، بل نجد منهم – السكاكي مثلا – الذي يرى أن النحو هو العامل الأساسي في تأدية أصل المعنى ، ومعرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا ، بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطأ في التركيب .[3]

لذا جعلوه – أي المستوى المثالي/ القاعدي – الخلفية الوهمية وراء الصياغة الفنية التي يمكن أن يقيسوا إليها عملية العدول في هذه الصياغة .

من هنا كان حرص البلاغيين واضحا على التذكير به ، والتنبيه إليه بمقارنة الصورة العدولية بصورة أخرى مقدَّرة تعادلها دلاليًّا أطلقوا عليها " أصل الكلام " أو " رعاية للأصل " أو" مقتضى الظاهر " ، ولكن اعتدادهم بهذا الأصل لا يتجاوز مجرد الإشارة إليه ؛ لأنه يخلو – في نظرهم – من أي قيمة فنية ، فإذا كان النحويُّ يهتم بما يفيد أصلَ المعنى ، فإن البلاغيَّ يبدأ حركته ونشاطه فيما يلي هذا مع تركيز النظر والقول على العناصر الجمالية .[4]

وفكرة العدول لها جذورها الوطيدة في تراثنا العربي في كتب القوم ، أمثال سيبويه ، وابن جني ، والزمخشري ، وابن الأثير ، والسكاكي ، وغيرهم ، وهذا ما سنوضحه فيما يلي في حديثنا عن مفهوم المصطلح في التراث .

---

١ بلاغة العطف في القرآن الكريم صـ ٦٣

٢ للعدول اثنا عشر مرادفا منها : الانزياح ، والانتهاك ، والانحراف ، وكسر النظام ، ... الخ . يُنظر : الأسلوبية والأسلوب صـ ٩٩ – ١٠٠ ، وبلاغة الخطاب وعلم النص صـ ٥٤ – ٦٩ .

٣ مفتاح العلوم صـ ٣٢

٤ نظرية اللغة في النقد العربي صـ ٢٠٦ ، ٢٠٧

مفهوم المصطلح في التراث :

بداية نشير إلى **المعنى اللغوي لمصطلح العدول** ، يقال : " عَدَلَ عنه يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدُولاً : حَادَ ، وإليه عدولاً : رجع ... وماله مَعْدِل ولا مَعْدُول : مَصْرِف " .

" عدل عن الطريق عدولا : مال عنه وانصرف ... وعِدْلُ الشيء بالكسر : مثله من جنسه أو مقداره ... وعَدلُه بالفتح : ما يقوم مقامه من غير جنسه ".[1]

والعدول عند النحاة : خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى .[2]

والملاحظ على ما سبق اتفاق المادة اللغوية المنقولة من المعاجم على أن من معاني العدول : الميل والانحراف ، أو التحول والانصراف ، وهي معان شديدة الصلة بالمعنى الاصطلاحي .

و مصطلح « العدول » جاء في تراثنا اللغوي و النحوي و البلاغي وتعددت أنماطه ، واطرد العلماء - قديما وحديثا - على استخدامه في مؤلفاتهم بشكل ملحوظ ، ولكن بمسمّياتٍ مختلفة اللفظ متّفقة الدلالة ، وهدفهم من العدول غالبًا التوسّع في المعنى ، أو لأجل الإيجاز والاختصار ، أو للمناسبة أو لمشاكلة المقاطع أو لمراعاة الفواصل ، كما أن فكرة العدول تُعد من سنن العرب التي حرصوا عليها في لغتهم ، حرصًا على دقة اللفظ وانسجام العبارة ، وجمال الإيقاع ، وتناسب المقاطع .

أولاً : المصطلح عند اللغويين والنحاة :

استخدم **سيبويه** (ت١٨٥هـ) مصطلح « العدول » بمعنى « الاتساع » وورد عنده مفهوم « التوسّع » على أربع صيغ صرفية هي: الاتساع ، والسعة ، وأوسع، واتسع .[3]

---

١ راجع القاموس المحيط « عدل » ١٤،١٣/٤ . و المصباح المنير « عدل » صـ٤٤ ومختار الصحاح، ولسان العرب « عدل » ومفردات الراغب « عدل » صـ ٤٨٧ .

٢ تعريفات الجرجاني صـ١٥٢ والتوقيف على مهمات التعاريف صـ٧٠٥ .

٣ انظر في ذلك : الكتاب ٢١١/١ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٣٥

ونلاحظ أن « السعة » عنده تعني « المجاز » ، والمجاز لونٌ من العـدول من حيث هو خروج عن الأصل ، إذ المجاز انحراف بالمعنى عن الحقيقة لفائدة أو لنكتة بلاغية ، وهو لم يبعد كثيرًا عن فهم البلاغيين ، فقد استخدم عبد القاهر « الاتسـاع » بهذا المعنـى عند حديثه عن الكناية والاستعارة والمجاز في مواضع متفرقة من دلائل الإعجاز .[1]

ولسيبويه حديث طويل عن الاتساع في الكلام للإيجاز والاختصار .[2] كما أن له أبوابًا صريحة في بيـان « العـدول » في لغة الشعر دون سائر الكلام، منها : « باب ما يحتمل الشعر »[3] ، و « باب ما يجوز في الشعر ولا يجوز في الكلام »[4] و « باب ما رخّمت الشعراء في غير النداء اضطرارًا »[5] و « باب وجوه القوافي في الإنشاد » .[6]

يقول سيبويه في باب (استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتّساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار) : " ومثله في الاتساع قوله عز وجل: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ (البقرة ١٧١) . فلم يشبهوا بما يَنعِقُ – وهو الراعي – وإنما شُبِّهوا بالمنعوق به ، وإنما المعنى : مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطَب بالمعنى " .[7]

فالآية الكريمة تدخل تحت ما يسمى بـ « تشبيه التمثيل » ، الذي دلّ سيبويه على معناه دون أن يصرح باسمه ، وهو يقوم على تشبيه شيئين بشيئين – كما هو متحقق في الآية – بتشبيه الداعي والكفار ، بالراعي مع الغنم " ولكنه

---

١ دلائل الإعجاز صـ ٦٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، وراجع كذلك الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي صـ ١٢٧ ، وما بعدها ، ١٨٠ ، وما بعدها .

٢ الكتاب ١٧٦/١ ، ٢١١ وما بعدها

٣ نفسه ٢٦/١ وما بعدها

٤ نفسه ١٢٤/٢ ، ١٢٥

٥ نفسه ٢٦٩/٢ وما بعدها

٦ نفسه ٢٠٤/٤ ، وما بعدها

٧ الكتاب ٢١٢/١ ، وراجع : أثر النحاة في البحث البلاغي صـ ١١٥ ، ومناهج البحث البلاغي صـ ٨١

اكتفى بذكر الكفار من المشبه ، والراعي من المشبه به ، فدلّ ما أبقى على ما ألقى وهذا معنى كلام سيبويه " .[1]

بيد أن سيبويه قد أجرى جُلّ التراكيب التي خرجت عن نمطيتها ، وعُدِل بها عن أصلها في الأداء اللغوي ، وسارت في ذلك العدول على سنن العرب في كلامها ، على ما أسماه بـ « الاتساع » سواء كانت هذه التراكيب تشتمل على مجاز أو تشبيه أو استعارة أو غير ذلك ... ولكن حسبه – بما تثبته نصوصه – ما قام من ربط بين عُرى النحو واللغة وما يترتّب على توخّي سننها من وجوه بلاغية اتسمت بسطحية التناول أحيانًا ، وبجودة الملمح أحيانًا ، وعذره في ذلك قائم ؛ فهو نحوي أصيل .

وتأثر بهذا الفهم – أعني العدول بمعنى المجاز – كل من الفراء وأبي عبيدة وابن قتيبة وأبي العباس ثعلب وغيرهم .[2]

فأبو زكريا الفراء (ت٢٠٧هـ) تناول المصطلح نفسه «المجاز» في العدول عن التثنية إلى الجمع ، حيث يقول : " في قوله عز وجل : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ (الحج ١٩) لم يقل اختصما لأنهما جمعان ليسا برجلين ".[3]

ويقول – في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ (الطارق ٦) – :
"أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم ، أن يجعلوا المفعول به فاعلاً إذا كان في مذهب نعت ، كقول العرب : هذا سر كاتم ، وهم ناصب ، وليل نائم ... وأعان على ذلك أنها توافق رءوس الآيات التي هن معهن " .[4]

وفي تفسيره لقوله سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (القيامة ٢٠ - ٢١) يقول : " رويت عن علي بن أبي طالب رحمه الله

---

١ إعراب القرآن المنسوب للزجاج ٤٧/١
٢ انظر : المزهر ٣٩٣/١ ، وما بعدها
٣ معاني القرآن ٢٢٠/٢
٤ معاني القرآن ٢٥٥/٢

« بل تحبون وتذرون » بالتاء وقرأها كثير « بل يحبون » بالياء ، [1] والقرآن يأتي على أن يخاطب المنزل عليهم أحيانًا ، وحينًا يُجعَلون كالغَيَب كقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ ﴾ (يونس ٢٢) " . [2]

وقال في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ (الفجر ٤) " وقد قرأ القرّاء "يسري" بإثبات الياء و " يسر" بحذفها [3] ، وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها رءوس الآيات ، ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها . أنشدني بعضهم :

كفّاك كفٌّ ما تُلِيقُ درهمًا جودًا ، وأخرى تُعطِ بالسيف الدَّما [4]

ويقول في موضع آخر في قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ (الرحمن ٤٦) وإنما ثناهما لأجل الفاصلة ، رعاية للتي قبلها والتي بعدها على هذا الوزن ... والعرب تفعل ذلك في الشعر ، والشعر له قوافٍ يقيمها الوزن والزيادة والنقصان ؛ فيحتمل ما لا يحتمله الكلام " . [5]

فالفراء هنا يتخذ من سنن العرب وطرقهم في الكلام وسيلة ترجيح لبعض القراءات القرآنية ، وطريقًا من طُرق العدول – فربما يعدل الأسلوب القرآني عن لفظ إلى آخر أو عن صيغة إلى أخرى – ويسوق رأيه مدعومًا بما أثر عنهم في شعرهم ونثرهم .

أما **أبو عبيدة** (ت ٢١٠هـ) فإنه يَعُدّ كل عدول أو انحراف عن مقتضى الظاهر من « المجاز » ، فمن ذلك قوله : " ومن مجاز ما جاء لفظه لفظ

---

١ هي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، وابن عامر - كتاب السبعة في القراءات صـ ٦٦١ ، وينظر : البحر المحيط ٨٣٠/٨

٢ معاني القرآن ٢١١/٣ – ٢١٢ ، وانظر مواضع أخرى ٤٣/١ ، ٤٤ ، ١٧٦/٢ ، ٢٢٤/٣ ، ٢٣١ ، ٢٦٨ .

٣ قرأ **ابن كثير** « **يسْر** » بالياء وصلٌ أو وقفٌ ... وقرأها **نافع** بياءٍ في الوصل ، وبغير ياء في الوقف ... وقرأها كل من **عامر وعاصم وحمزة والكسائي** بغير ياء في وصل ولا وقف ... وقرأها **أبو عمرو** فيما روى **ابن عباس** « **يسْر** » جزمًا إذا وصل وإذا وقف . (كتاب السبعة في القراءات صـ ٦٨٣ ، ٦٨٤)

٤ معاني القرآن ٢٦٠/٣ ، وانظر مواضع أخرى ١٦/١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

قال **ابن منظور** " وما يليق بكفه درهم ، أي ما يحتبس ، وما يُلِيقه هو ، أي ما يحبسه ولا يلصق به، ثم ذكر البيت " . (لسان العرب مادة « ليق ») .

٥ معاني القرآن ١١٨/٣

الواحد الذي له جماع منه ووقع معنى هذا الواحد على الجميع ، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ (غافر ٦٧) في موضع « أطفالاً » ... ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الجميع على لفظ الواحد قال : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم ٤) في موضع ظهراء " .[1]

وعند تناوله للعدول عن الجمع إلى الإفراد في قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ (يس ٣٤ – ٣٥) يقول : مجاز هذا مجاز قول العرب يذكرون الاثنين ثم يقتصرون على خبر أحدهما وقد أشركوا ذلك فيه ، وفي القرآن ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة ٣٤) وقال الأزرق بن طرفة :

رماني بأمر كنت منه ووالدي ... بريئًا ومن دون الطَوِيِّ رماني

ولم يقل : بريئين ، واقتصر على خبر واحد وأدخل الآخر معه .[2]

والغاية التي أرادها أبو عبيدة من توسع مفهوم المجاز ، هي التدليل على أن البيان القرآني المعجز لم يَحِد في معجمه أو في أساليبه عن سنن العربية في التعبير والبيان ، ففي القرآن – على حد تعبيره – " ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ، ومن المحتمل من مجاز ما اختصر ، ومجاز ما حُذف ، ومجاز ما كُفَّ عن خبره ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين ، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد ، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد ... ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناه مخاطبة الشاهد ، ومجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تُركت

---

١ مجاز القرآن ٩/١ ، وانظر مواضع أخرى ٢٧٩/١ ، ٣٣٩ ، ٤١٠ ، ٩٦/٢ ، ٢٦٨ ، ٣٦٣ .
٢ مجاز القرآن ١٦١/٢ ، وتفسير القرطبي م/٤ ج/٨ صـ ٨٢

وحـوّلت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ... ومجاز المجمل استغناءً عن كثرة التكرير ، ومجـاز المقـدَّم والمؤخـَّر ... وكل هذا جائـز قد تكلموا به " .[1]

وعلـى أسـاس تلك الغاية اقتصر تناول أبي عبيدة لظاهرة المجاز - والتي تُعدّ لونًا من ألوان العـدول - على مجرد الإشارة إليها ، والاستشهاد لها بما ورد على نهجها من كلام العرب شعرًا ونثرًا .

وعلـى النهج نفسـه ، يسير **ابن قتيبة** (ت٢٧٦هـ) فـي كتابه « تأويل مشكل القرآن » فقد ابتدأ كتابه ببيان حال العرب في مباني ألفاظها وإعرابها ، وتحدث عن مكانـة الشـعر عندها ، وهـو " الـذي أقامـه الله مقـام الكتابة لغيرها ، وجعلـه لعلومها مستودعًا ، ولآدابها حافظـًا ولأنسـابها مقيدًا "[2] إلى أن قال مقاربًا بين لغـة الخطـاب القرآنـي وغيره مـن أنـواع الخطـاب : " وللعـرب المجـازات فـي الكـلام، ومعناها طـرق القـول ومآخذه ، ففيها الاسـتعارة ، والتمـثيل ، والقلـب ، والـتقديم والتأخيـر ، والحـذف ، والتكـرار ، والإخفـاء والإظـهـار ، والتعـريض ، والإفصـاح، والكـناية ، والإيضـاح ، ومخاطـبة الـواحد مخاطـبة الجمـيع ، والجميع خطـاب الـواحد ، والـواحد والجمـيع خطـاب الاثـنين ... وبكـل هـذه المذاهـب نـزل القـرآن " .[3]

ويلحظ القارئ عند ابن قتيبة إشارة مهمة إلى صعوبة الفصل بين الشكل والمضـمون ، أو اللفظ والمعنـى في لغة العرب عامة ، وفي لغة القرآن خاصة ، ومرد ذلك إلى اتساع المجاز في الخطابين .

وعـقد ابـن قـتيبة فـي كـتابه الآنـف بابًا بعنوان «مخالفـة ظاهـر اللفـظ معناه »[4] ... يقـول : " ومنه واحد يـُراد به جميـع ، كـقوله : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِى فَلَا تَفۡضَحُونِ ﴾ (الحجر ٦٨) ، وقوله :﴿ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء ١٦) وقـولـه : ﴿ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا ﴾ (الحج ٥) ... والعـرب تقـول : فـلان كثير الـدرهم والدينـار ، يريدون الدراهم والدنانير ، وقال الشـاعر :

---

١ مجاز القرآن ١٨،١٩/١
٢ تأويل مشكل القرآن صـ ١٤
٣ تأويل مشكل القرآن صـ ٢٠ ، ٢١
٤ انظر المرجع السابق صـ ٢٧٥ - ٢٩٨

هم المولى وإن جَنَفوا علينا   وإنَّا من لقائِهِمُ لَزَوُرُ [1]

ويقول **ابن قتيبة** في « تفسير غريب القرآن » : " وإنما يجوز في رءوس الآي أن يزيد **هاءً** للسكت كقوله : ﴿ **وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ** ﴾ (القارعة ١٠) **وألفًا** كقوله: ﴿ **وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا** ﴾ (الأحزاب١٠) أو يُحذف همزة من الحرف كقوله تعالى : ﴿ **أَثَٰثًا وَرِءْيًا** ﴾ (مريم ٧٤) أو **ياءً** كقوله تعالى : ﴿ **وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ** ﴾ (الفجر ٤) لتستوي رءوس الآي على مذاهب العرب في الكلام إذا تمّ فآذنت بانقطاعه وابتداء غيره ؛ لأن هذا لا يزيل معنًى عن جهته ولا يزيد ولا ينقص " . [2]

وابن قتيبة في كل هذه الأبواب ينطلق – كسابقيه – من أن القرآن جاء على سنن العربية ، وأن لغة العرب عرفت كل هذه الأبواب ، لأن للغة العرب من الاتساع في المجاز ما ليس لسائر اللغات ، ويؤيد ذلك بالنصوص من شعر العرب ونثرهم .

أما **ابن جني** (ت٣٩٢هـ) فاستعمل مصطلحات : « العدول » و « الانحراف » و « الخروج عن الأصل » حيث يقول : " من تكثير اللفظ لتكثير المعنى **العدول** عن مُعتاد حاله ، وذلك « فُعَال » في معنى « فَعيل » ، نحو : « طُوَال » ، فهو أبلغ معنًى من « طَويل » ، ... و « سُرَاع » أبلغ من «سَريع» . ففُعَال – لعمري – وإن كانت أخت فعيل في باب الصفة ، فإن فعيلاً أخصّ بالباب من « فُعَال » ، ألا تراه أشدّ انقيادًا منه، تقول : « جَميل » ، ولا تقول : « جُمَال » ، و « بَطيء » ولا تقول : « بُطَاء » ... فلما كانت « فعيل » هي الباب المطرد وأُريدَت المبالغة ، **عُدِلَت** إلى «فُعَال » ، فضارعت « فُعَال » بذلك « فُعَّالاً » . والمعنى الجامع بينهما **خروج كل واحد منهما على أصله** ، أما « فُعَّال » فبالزيادة ، وأما « فُعَال » فب**الانحراف** به عن « فَعيل » . [3]

ولقد سبق أن نبه ابن جني إلى إمكانات « العدول » في الحركات الإعرابية للبسملة في أربعة أشكال ، وربط بين **العدول ودلالته في السياق** ، فنجده يقول : " ... وكل ذلك على وجه المدح ، وما أحسنه ههنا ! وذلك أن الله تعالى إذا وُصِفَ فليس الغرض في ذلك تعريفه بما يتبعه من صفته ... وإذا كان

---

١ تأويل مشكل القرآن صـ ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، وانظر : مجاز القرآن ٦٦/١ ، ٦٧ ، ٤٤/٢ ، والصاحبي صـ ٣٥١

٢ تفسير غريب القرآن صـ ٤٤٠

٣ الخصائص ٢٧٠/٣ ، ٢٧١

ثناءً **فالعـدول** عن إعراب الأول أولى به ... فإذا **عدل به عن إعرابه** ، عُـلم أنه للمدح أو الذمّ فـي غير هذا ... فلذلك قويَ عندنا اختلاف الإعراب في « الرحمن الرحيم » بتلك الأوجه التي ذكرناها ، ولهذا في القرآن والشعر نظائر كثيرة " .[1]

وذهب **ابـن جنـي** إلى أبعد من ذلك ، فقرر أن كثيرًا من أنواع المجاز من بـاب « شـجاعة العربية » [2] من المحذوف والزيادات والتقديم والتأخير وغيرها ، مستدلاً علـى ذلك بأمثلة سيبويه مدللا على ما بها من مجاز واتساع ، فيقول : "ألا تـرى أنك إذا قلت : بنو فلان يطؤهم الطريق ، فيه من السعة إخبارك عما لا يصـح وطـؤه بما يصـح وطـؤه ، وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ (يوسف ٨٢) فـيه المعانـي الـثلاثة (الاتسـاع ، والتشـبيه ، والتوكـيد) أمـا الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح في الحقيقة سؤاله " .[3]

وأشـار ابـن جنـي إلى أن وقوع المفرد موقع الجمع شائع عند العرب فاشٍ فـي اللغـة ، واسـتدل علـى ذلك بقوله تعالـى: ﴿ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ (غافر ٦٧) أي أطفـالاً ، وعلّـق عليه بقوله : " وحُسن لفظ الواحد هنا شيء آخر أيضًا ، وذلك أنه موضـع إضـعاف للعباد وإقلال لهم ، فكان لفظ الواحد لقلته أشبه بالموضع من لفظ الجماعة ؛ لأن الجماعة على كل حال أقوى من الواحد فاعرف ذلك " .[4]

وهـذا تعليل طـريف من ابن جني ؛ إذ رأى أن علة العدول من الجمع إلى المفـرد هـي الاختصـار والتخفيف ، وذلك أمر قد نحسّه في كثير من الأساليب ، وبذلك ربـط ابـن جنـي بين غـرض الكلام والصياغة التي يرد عليها، وهو تحليل فـذٌ يذكـّرنا بصنيع البحث الأسلوبي المعاصر .

ويقـول (فـي بـاب استعمال الحـروف بعضـها مكـان بعض) – وهـو لـون مـن العــدول – : " ولسنا ندفـع أن يكون ذلك كما قالوا، لكنا نقول : إنه يكون لمعناه فـي موضـع دون موضـع علـى حسب الأحوال الداعية إليه والمسوّغة له ، فأمـا فـي كل موضـع وعلـى كل حـال فلا " .[5] وهذه لفتة جيدة من ابن جني ؛ إذ

---

١ الخصائص ٣٩٩/١ ، ٤٠٠

٢ الخصائص ٤٤٦/٢ ، ٤٤٧

٣ الخصائص ٤٤٦/٢ ، ٤٤٧

٤ المحتسب ٢٠٢/١ ، ٢٤٦ ، ٨٧/٢

٥ الخصائص ٣٠٦/٢ ـ ٣٠٨

يولي السياقَ وقرائنَ الأحوال أهميةً كبرى في توجيه المعنى والوقوف على بلاغة استعمال الحرف ، فهو يرى أن تناوب الحروف بعضها مكان بعض أمر لا يخضع لقياس ، بل يخضع للأحوال الداعية إليه والمسوّغة له . وقد استفاد من هذه الفكر من جاء بعده من النحاة والمفسرين والبلاغيين والنقاد العرب ، بله الغربيين .[1]

إذن فابن جني يرى أن من شجاعة العربية وقوع المفرد مكان الجمع، وتبادل الحروف بعضها مكان بعض ، كل ذلك على سبيل المجاز والاتساع ، لذلك نراه يقول في موضع آخر : " وإنما يقع المجاز و**يُعدل** إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي : « الاتّساع » ، و « التوكيد » ، و « التشبيه » ، فإن عدِم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتّة " .[2]

فالحقيقة هي المتصوَّر المثالي ، والمجاز هو **الاستعمال العدولي** ، والربط بين **العدول والمجاز** في نص ابن جني ربط صريح ، وتكمن أهميته في أداء جملة من الوظائف ... ومهما يكن من قول في الحقيقة والمجاز ، فإن «العدول عن الأصل » تولُّد ذاتي في اللغة يرتبط بتولد الأفكار وتشعبها وتحاورها وتجادلها ، وأنه لا يُحكم بشرعية العدول إلا إذا أضاف فضلاً و مَزيّة .[3]

لقد عالج ابن جني كثيرًا من ظواهر الانحراف بالدلالة الحقيقية إلى دلالات أخرى مجازية ، وقدم – لمن جاء بعده – مادة جيدة للبحث الأسلوبية في مسألة الدلالة المجازية في بابه المعروف بـ « شجاعة العربية » ، كما وسّع دائرة « العدول » لتشمل الخطاب الأدبي دون مراعاة لاختلاف أجناسه ، فذهب إلى أن « العدول » في الشعر ليس من الاضطرار ، وإنما الدافع إليه رغبة الشاعر في التعبير المبني على الاختيار ، فيقول : "... فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها فاعلم أن ذلك على ما جَشِمَهُ منه وإن دل من وجه على جَوْره وتعسُّفه ؛ فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمُّطه وليس دليلاً على ضعف لغته ، ولا قصورًا عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته ، بل مَثَلَهُ في ذلك عندي مَثَلُ مُجْري الجَمُوح

---

١ انظر صـ ١٧ ـ ١٩ من هذا البحث
٢ الخصائص ٤٤٤/٢ ، وما بعدها . وانظر مواضع أخرى ٢٤٧/٣ ، ٢٦٧/٣
٣ مصطفى السعدني . العدول أسلوب تراثي في نقد الشعر صـ ٤٩ ، ٥٠ .

بلا لجام ، ووارد الحرب الضَّروس حاسرًا من غير احتشام ، فهو وإن كان ملومًا في عنفه وتهالكه ، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مِنَّتِه " .[1]

ونلتقي بـ**ابن فارس** (ت ٣٩٥هـ) حيث يقدّم حديثًا مطولاً عن **سنن العرب** التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم والتي نزل القرآن بها فيقول : " وقد جاء القرآن بجميع هذه السنن لتكون حجة الله عليهم آكد ، ولئلا يقولوا : إنما عجزنا عن الإتيان بمثله ؛ لأنه بغير لغتنا وبغير السنن التي نستنها ، فأنزله – جل ثناؤه – بالحروف التي يعرفونها ، وبالسنن التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم ، ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله أظهر وأشهر " .[2]

ويرى ابن فارس أن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب ، فيقول : "أين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟ " .[3] ويستشهد على ذلك بقوله : " لو احتجنا إلى أن نعبّر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية ، لما أمكننا لذلك إلا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة ، وكذلك الأسد والفرس ... " .[4] ويذهب إلى أبعد من ذلك في بيان قيمة الاتساع فيقول : " لو أنه لم يُعلم توسّع العرب في مخاطبتها لَعَيّ بكثير من علم محكم الكتاب والسنة" .[5] وكأن معرفة الاتساع والإلمام بخباياه شيء ضروري لمن يرغب في فهم النص القرآني وتذوقه ، وإلا فسيظل النص مغلقا يعسر فهمه .

ومما ذكر ابن فارس من سنن العرب : الحذف والاختصار ، وذكر الجمع والمراد الواحد ، ومخاطبة الواحد بلفظ الجميع ، وخطاب الواحد بلفظ الاثنين ، والبسط والقبض ، والتقديم والتأخير ، والاعتراض .[6]

وذكر أيضًا « المحاذاة » وعرفها بـ " أن يُجعل كلام بحذاء كلام ، فيؤتى به على وزنه لفظًا ، وإن كانا مختلفين ، فيقولون : « الغدايا والعشايا » ، فقالوا: الغدايا لانضمامها إلى العشاي " .[1]

---

١ الخصائص ٣٩٤/٢
٢ الصاحبي ٣٢٣ . انظر : " المزهر " حيث عقد السيوطي فصلا عن هذه السنن نقلا عن الصاحبي وغيره ، صـ ٣٣٢/١ وما بعدها .
٣ الصاحبي صـ ٧١
٤ الصاحبي صـ ٧١
٥ الصاحبي صـ ٤
٦ راجع الصاحبي لابن فارس صـ ٣٣٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٣٦٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤١٢ ، ٤١٤ على الترتيب ، وانظر :السيوطي . المزهر .٣٤٢/١و ٢٦٦

وحديث ابن فارس عن سنن العرب حديث طويل ، يتميز بأنه يدل على رؤية مبكرة لقواعد الخطاب مما يحاول العصر الحديث رصده وتنظيمه ، من دور المتكلم والمتلقي والظروف المحيطة ، وفيه أيضًا مزج ممتاز لما كان مقصورًا على البنية اللغوية ، ولما استقر عند البلاغيين ، وهذا المزج بين «اللغة» و « البلاغة » هو الذي يكشف عن منهج عربي مبكّر في درس الوظيفة الاتصالية للغة .[٢]

وقد تابع **الثعالبي** (ت٤٢٩هـ) في « فقه اللغة » ابنَ فارس متابعة تامة في جل ما ذكره من سنن العرب[٣] ، يقول في إجراء الاثنين مُجْرَى الجمع : " قال الشَّعْبِيُّ في كلام له في مجلس عبد الملك : لحَنْتَ يا شعبي ، قال : يا أمير المؤمنين لم ألحنْ مع قول الله عز وجل : ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ﴾ (الحج ١٩) فقال عبد الملك : لله درُّكَ يا فقيه العِراقَيْن ! قد شَفَيْتَ ، وكَفَيْتَ " .[٤]

ويلقانا بعد ذلك **ابن سيدة** (ت٤٥٨هـ) صاحب كتاب « المحكم » الذي يقول عند تعرضه لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (الكهف ٥١) : " أي أعضادًا، وإنما أفرد ليعدل رءوس الآيات بالإفراد " .[٥] فقد جعل مراعاة رءوس الآي (الفواصل) سببًا من أسباب العدول ، وهذا وارد عند كثير من القوم .

أما **ابن هشام** (ت٧٦١هـ) فهو يستخدم مصطلح « التحويل » – مرادفًا لمصطلح العدول – في أثناء حديثه عن أقسام التمييز المبيِّن لجهة النسبة فجعلها أربعة : أحدها أن يكون محولا عن الفاعل ، نحو : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم ٤) أصله « واشتعل شيب الرأس » وقوله تعالى : ﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا ﴾ (النساء ٤) نفسًا أصله « فإن طابت أنفسهن لكم عن شيء منه » فحول الإسناد فيهما عن المضاف ، ثم جيء بذلك المضاف الذي حوّل عن الإسناد فضلةً تمييزًا ، والثاني : أن يكون محوّلا عن المفعول ، نحو ﴿ وَفَجَّرْنَا

---

١ الصاحبي صـ ٣٨٤ ، وانظر : المزهر ٣٣٩/١
٢ د/ عبده الراجحي . مقدمة الصاحبي صـ ٢٢
٣ فقه اللغة ٥٦٨/٢ ، وما بعدها
٤ فقه اللغة ٥٧٥/٢ – ويقصد بالعراقَيْن : البصرة والكوفة (ينظر معجم البلدان ١٠٥/٤)
٥ المحكم ٢٤١/١ ، مادة (عضد)

ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا ﴾ (القمر ١٢) ، والثالث : أن يكون محوّلا عن غيرهما ، نحو﴿ أَنَاْ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا ﴾ (الكهف ٣٤) ، والرابع أن يكون غير محوّل ، نحو « لله درّه فارسًا » .[1]

إذن « العــدول » - عند اللغويين والنحاة - هو كل تحول أسلوبي ، أو انحراف عن الأصل المثالي ، لا يتغير به جوهر المعنى ، أي « البنية العميقة » له ، أو هو العـدول بالكلام من نمط إلى نمط آخر من أنماط التوسع في المعنى ، أو " العـدول عن مساق الكلام إلى مساق آخر " .[2]

ومن خلال مبحث المطابقة الذي أقامه النحاة واللغويون يظهر "الالتفات/ العدول/ الانحراف " كخاصية تعبيرية تتميز بطاقتها الإيحائية من حيث كان بناؤه يعتمد على العــدول ، وطبيعة المطابقة بعلاقاتها السياقية تتمثّل لغويا في العلامة الإعرابية ، كما تتمثل في **الضمائر** (التكلم والخطاب والغيبة) وفي **العدد** (الإفراد والتثنية والجمع) ، وفي **النوع** (التذكير والتأنيث) ، ثم أخيرا في **التعيين** (التعريف والتنكير) .

ما أعظم جهود هؤلاء الأعلام ! وخصوصًا ابن جني الذي سبق فِكْـرُه زمانــه بآلاف السنين ، وقدّم في مؤلفاته مادة جيدة يفيد منها أصحاب الأسلوبية المعاصرة .

---

١ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب صـ ٢٧٣
٢ أصول البلاغة صـ٨٣

ثانيًا : المصطلح عند البلاغيين والمفسرين :

وكما شاع مصطلح **العدول** عند اللغويين والنحاة شاع كذلك عند البلاغيين والمفسرين ، ولكن بمسميات مختلفة اللفظ ، مرادفة في المعنى ، متفقة في الدلالة ، فاستخدم **ابن وهب** مصطلح « الصرف » [1] ، واستخدم **ابن منقذ** مصطلح « الانصراف » [2] ، وكذلك استخدمه **ابن شيث** في (معالم الكتابة) ولعل **الأصمعي** أول من سماه « التفاتًا » [3] ، ثم أخذ التسمية منه **ابن المعتز** في (البديع) وجعله أول محاسن البديع ، ثم تناقل البلاغيون المصطلح من بعده ومنهم **الزمخشري** و**الرازي** و**ابن الأثير** و**العلوي** و**السكاكي** و**القزويني** ومن تلاهم من شُرّاح التلخيص [4] ، ومنهم من سماه « الخروج على مقتضى الظاهر» [5] ، أو « الخروج عن الأصل » [6] ، وسماه **الفيروزابادي** المفسر «التلون » [7] .

والمستقرئ لهذه المصطلحات يدرك أن المادة اللغوية أو المعجمية للعدول تدور في عمومها حول محور دلالي واحد هو التحول أو الميل والانحراف عن المألوف ، أو الخروج عن القاعدة المطردة ، أو انحراف – غير متوقع لدى المتلقي – عن نمط من أنماط اللغة الأصلية في نسقها المثالي.

وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) استخدم لفظ العدول كثيرًا وربط بينه وبين مصطلح المجاز ، حيث يقول : " وإذا **عُدل** باللفظ عما يوجبه أصل اللغة ، وُصف بأنه مجاز ، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وُضع فيه أولاً " [8] .

ويقول في باب « التقديم والتأخير » في سياق العدول إلى التقديم وبلاغته: " اعلم أنه إذا كان بيِّنًا في الشيء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذي هو

---

١ هكذا سماه ابن وهب في البرهان صـ ١٢٢ . تح/ حفني شرف
٢ هكذا سماه ابن منقذ (البديع في نقد الشعر صـ٢٠٠) وكذلك سماه ابن شيث (معالم الكتابة صـ٧٦)
٣ حلية المحاضرة ١/١٥٧ والعمدة ٢/٤٦
٤ راجع معجم المصطلحات البلاغية وتطورها صـ ١٧٣ ، ١٩٦ ، ٤٨٣
٥ سماه بذلك السيوطي في « شرح عقود الجمان » صـ٢٧
٦ هكذا سماه ابن الصائغ في « إحكام الراي في أحكام الآي » ونقل عنه التسمية السيوطي في الإتقان ٣/ ٣٤٥ ومعترك الأقران ١/٤٩
٧ هكذا سماه الفيروزابادي في أثناء حديثه عن أصناف الخطابات والجوابات في القرآن وجعل منه ثلاثة وجوه . انظر بصائر ذوي التمييز ١/ ١٠٩ ، وما بعدها
٨ أسرار البلاغة ٣٦٥ (تح/ ريتر)

عليه حتى لا يُشكل ، وحتى لا يحتاج - في العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب - إلى فكر وروية ، فلا مزية ، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهًا آخر ، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ، ورأيت للذي جاء عليه حسنًا وقبولاً ، تَعْدَمُهُمَا إذا أنت تركته إلى الثاني، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ ﴾ (الأنعام ١٠٠) ليس بخاف أن لتقديم « الشركاء » حسنًا وروعة ومأخذًا في القلوب ، أنت لا تجد شيئًا منه إن أنت أخرت فقلت : « وجعلوا الجن شركاء لله » وأنك ترى حالك حال من نُقل عن الصورة المُبهجة إلى الشيء الغفل الذي لا تحلى منه بكثير طائل ... والسبب في أن كان ذلك كذلك ، هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنًى جليلاً لا سبيل إليه مع التأخير ، بيانه أنّا وإن كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو انه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك ، لا من الجن ولا غير الجن ، وإذا أُخّر فقيل : « جعلوا الجن شركاء لله » لم يُفِدْ ذلك ، ولم يكن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى " .[١]

فعبد القاهر في هذا النص يميز بين نوعين من التراكيب أحدهما نمطي أو مثالي والآخر فني أو عدولي ، وفنية هذا النوع الأخير أو مزيته تتجلى عن طريق المقارنة بين الوجهين « المثالي والمنحرف » ومسوّغ المقارنة بينهما أنهما يتماثلان في الدلالة على ذات المعنى المراد بالعبارة ، فأصل المعنى واحد بين « وجعلوا لله شركاء الجن » و « وجعلوا الجن شركاء لله » غير أن العبارة القرآنية – بتقديم الشركاء على الجن – قد أحدثت في هذا المعنى خصوصية نفتقدها في العبارة المفترضة ، وهذا هو السر في إيثار العبارة القرآنية .

إذن فتغيير الترتيب (بالتقديم أو التأخير) يمثل عدولا عن هذا الأصل المثالي ، واختراقا للحركة الأفقية المنتظمة المسيطرة علي بنيته العميقة ، تبعا لعنصر القصد عند المبدع ، حيث تتوافق البنية السطحية المخالفة مع اتجاه الحركة الذهنية عند المبدع ، " لأن مجرد مخالفة الترتيب المثالي ، يُنبئ عن غرض ما ، هو إبراز كلمة أو نكتة لتوجيه التفات المتلقي إليها ... ومن ثم فهذا الإجراء الأسلوبي يتطلب من صاحبه حسًّا لغويًّا مدربًا ، ولطفًا عاليًا في الذوق

---

١ دلائل الإعجاز صـ ٢٨٦ ، ٢٨٧ (تح/ شاكر)

الأدبي ، يضاف إليه معرفة بالظروف الفيلولوجية للغة المدروسة "[1] التي تتدخل في التركيب اللغوي للعبارة .

واستخدم عبد القاهر لفظ « العدول » بمعنى « التحوّل » من دلالة اللفظ لمعناه إلى « معني المعني » في قوله : " الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ... وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكنك يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ... وإذا قد عرفت هذه الجملة منها هنا عبارة مختصرة ، وهي أن تقول : المعنى، ومعنى المعنى ، تعني بـ « المعنى » : المفهوم من ظاهر اللفظ ، والذي تصل إليه بغير واسطة ، وبـ « معنى المعنى » : أن تعقل من اللفظ معنًى ، ثم يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر " .[2]

فالتوصل بدلالة المعنى على معنى آخر لا يتم إلا بالعدول عن الأصل لفوائد يقصر اللفظ وحده عن أدائها .

ونظرية « معنى المعنى » التي طرقها عبد القاهر – أو " المعاني الثواني " كما هي عند حازم[3] – لها تعلّق بمفهوم «التوسع » ومفهوم «المجاز» – ولعله متأثر في ذلك بابن جني – حيث يقول : " إن صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ ، حتى يكون هناك اتساع ومجاز ، وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له في اللغة ، ولكن يشار بمعانيها إلى معان أخَر ".[4]

وهكذا يتضح لنا من خلال ظاهرة الاتساع تعالق الجانب النحوي بالجانب البلاغي ، حيث الانتقال من الحقيقة إلى المجاز ، وحيث يقوم الاتساع على أساس الدلالة اعتمادًا على المعنى كما يرى عبد القاهر .[5]

ولم تفت عبد القاهر الإشارة إلى مفهوم الاتساع ، وذلك في مناقشته لقضية الصدق والكذب في الشعر ، فمن النقاد من قال : « أحسن الشعر أصدقه »

---

١ فندريس . اللغة صـ ١٨٨ ، وينظر : اللغة والإبداع الأدبي صـ ٢٠
٢ دلائل الإعجاز صـ ٢٦٣ ، ٢٦٤ . تح/ شاكر ، ويُنظر : من قضايا النقد والبلاغة صـ ١٤٦
٣ منهاج البلغاء صـ ١٨، ١٩
٤ دلائل الإعجاز صـ ٢٦٥ ، وقارن ذلك بما جاء في الخصائص ٤٦٦/٢ ، وما بعدها
٥ كتاب المقتصد في شرح الإيضاح . عبد القاهر الجرجاني . تح/ كاظم المرجان . بغداد . دار الرشيد . ١٩٨٢م .

ومنهم من قال : « أحسن الشعر أكذبه » أما من قال : أكذبه ، فقد ذهب إلى " أن الصنعة إنما تمد باعها ، وينشر شعاعها ، ويتسع ميدانها ، وتتفرع أفنانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل ، وحيث قصد التلطف والتأويل ، وهنا يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع ويزيد ، ويُبْدئ في اختراع الصورة ويعيد ، ويصادف مضطربًا كيف شاء واسعًا ، ومددًا من المعاني متتابعًا "[١] .

يبدو من هذا النص أن عبد القاهر قارن بين الاتساع والتخييل وهما عنصران فاعلان في تشكيل الأسلوب المجازي الذي يُعد معلمًا بارزًا من معالم الإبداع واختراع الصور ، ولذلك يستطيع الشاعر أن يصنع اللغة بالطريقة التي يراها تخدم غرضه وتجسد رؤيته . ومن هنا يكون الاتساع ذا قدرة على تجاوز حدود المألوف والعادي .

إن " معنى المعنى " أو " المعاني الثواني " إنما مدارها على الكناية والاستعارة والتشبيه . من أجل هذا قال عبد القاهر كلمته المشهورة : " إن من الاستعارة مالا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف علي حقيقته ... ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : « واشتعل الرأس شيبا » لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا للمزية موجبا سواها ، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ... ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي للفعل له في المعني منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة ... ثم يدعونا عبد القاهر إلى المقارنة بين قولنا : «اشتعل شيب الرأس» أو « الشيب في الرأس» ، وبين نص الآية الكريمة فيقول : " ثم تنظر : هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة ؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها ؟ فإن قلت : فما السبب في أن كان « اشتعل » إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ، ولمَ بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة ؟ فإن السبب أن يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعمّ جملته... وهذا ما لا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ... واعلم أن في الآية شيئا آخر من جنس النظم ، وهو تعريف الرأس بالألف واللام ، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة . وهو أحد ما أوجب المزية . ولو قيل : واشتعل رأسي – فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن "[٢] .

---

١ أسرار البلاغة ٣٤٣

٢ المرجع السابق صـ ١٠٠ – ١٠٢ ، وانظر : قضيا النقد الأدبي صـ ٣١٧ - ٣١٩

إن هذا النص يدل على أن « معنى المعنى » لا يكون في اللغة المباشرة العادية التقريرية ، إنما يكون في استخدامات اللغة التي تمثل خروجًا عن النمط المثالي للغة ، وانتهاكًا لما هو مألوف وعادي .

كذلك كان شأن الاستعارة عند سابقيه ، **كابن وهب** (ت٣٢٨هـ) ، حيث يقول : " وأما الاستعارة فإنما احتيج إليها في كلام العرب ؛ لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم ، وليس هذا في لسانٍ غير لسانهم، فهم يعبّرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له ، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره ، وربما استعملوا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز " .[١]

أما القاضي الجرجاني (ت٣٦٦هـ) فقد جعل التوسّع مرتبطًا بالاستعارة فقال : " فأما الاستعارة فهي أحد أعمدة الكلام وعليها المعوّل في التوسع والتصرف ، وبها يُتوصّل إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر " .[٢]

وبهذا تكون الاستعارة عند البلاغيين والنقاد أداة من أدوات التوسع الذي يُمكّن المبدع من كسر قواعد اللغة ، ومنحها مجالات أوسع للتعبير عما يشعر به ، فاستخدام الشاعر للألفاظ يعتمد فيما يعتمد على المعنى السيكولوجي لها – أعني دلالتها الارتباطية الذاتية والجماعية – ولكنه اعتماد يتجه فنيا بهذه الإيحاءات الخاصة إلى سياق أوسع وأشمل ، ليفك ارتباطها التقليدي فيتحول على يده كل ما هو ذاتي وخاص من دلالات الألفاظ إلى كل ذي طابع عام .[٣]

إذن فمن النقاد من سمّى هذا التصرّف العدولي « اتساعًا » ، ومنهم من سمّاه « توسّعًا » مع أن المفهومين يحملان الدلالة نفسها ، وحتى لا يظن ظانّ بأن هناك فرق بينهما فإن مفهوم الانحراف – الذي استخدمه بعض النقاد[٤] – يدل دلالة كبيرة على هذا التصرف العدولي ، كما أنه يُبرز أن إدراك النقاد العرب لهذه القضية مرتبط بإدراكهم لطبيعة الأسلوب الذي يُعد انحرافًا عن

---

١ البرهان في وجوه البيان صـ ١٤٢
٢ الوساطة صـ ٤٢٨
٣ بلاغة العطف في القرآن الكريم صـ ١٥١ (بتصرف)
٤ من هؤلاء النقاد د/ صلاح فضل في كتابيه (علم الأسلوب) صـ ٢٣٦ ، وما بعدها ، و (بلاغة الخطاب وعلم النص) صـ ٥٤ – ٦٩ ، و د/ شكري عياد في كتبه (مدخل إلى علم الأسلوب) ، و (اتجاهات البحث الأسلوبي) ، و (اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي) ، و د/ محمد عبد المطلب في كتابيه (البلاغة والأسلوبية) صـ ١٥٠ – ٢٥٥ ، و (قضايا الحداثة عند عبد القاهر) صـ ٧٤ ، ١١ ، ود/ موسى ربابعة في كتابه (جماليات الأسلوب والتلقي) صـ ٤٧ ، وما بعدها ، و د/ شفيع السيد في كتابه (الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي) صـ ٩٥ – ٩٨ ، ١٣٨ ، ١٤٢ – ١٤٢ ، ويُنظر : الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية صـ ٤٢ ، ٤٣ .

القاعدة العامة أو المألوفة ، ومن ثم يكون « الانحراف » مُعادلاً لـ « الاتساع أو التوسع » وبخاصة انحراف اللغة عن أصلها الحقيقي بوضعها في إطار التعبير المجازي ، ولا شك أن هذا الإجراء العدولي يعتمد اعتمادًا أساسيًا على خيال المبدع وقدرته على التغيير في ماهية الأشياء ومنحها أبعادًا جديدة [1] " وذلك في الجهاد الفني فوز غير قليل " . [2]

ثم نلتقي **بالزمخشري** (ت٥٣٨هـ) فنجده استخدم مصطلح « العدول» بمسمى أخر وهو « الالتفات » وبيّن فائدته في الكشف عن بلاغة النص القرآني من خلال **منهجه التحليلي** الذي اتبعه في " **الكشاف** " حيث لاءم بين فكرتي **تخير اللفظ ، وتخير الموقع** ، فتحقق له بمصطلح " العدول " بيان كيفية تحقيق تجاوب النظم .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ ﴾ (فاطر ٩) إن قلت : لم جاء فتثير على المضارع دون ما قبله وما بعده ؟ قلت : ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعية الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك " . [3]

إن العدول بالخطاب من الماضي إلى المضارع – ونحن نعلم دلالة المضارع – تمثّل الفعل كأنه واقع ماثل مشاهد على نحوٍ يحقق في الحكاية المعايشة الفعلية للحدث من قبَل المتلقي .

وكذلك العدول عن المضارع إلى الماضي يجعل المتوقع في النسق الطبيعي المطرد للزمن في حكم الواقع لدفع المخاطب إلى التيقن منه ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (النحل ١) . قال الزمخشري : " كانوا يستعجلون ما وُعِدوا من قيام الساعة ... فقيل لهم : أتى أمر الله ، الذي هو بمنزلة الآتي الواقع المُتيَقَّن ، وإن كان منتظر لقرب وقوعه " . [4] ويرى بعض الباحثين المعاصرين أن جملة (فلا تستعجلوه) " قرينة لغوية سياقية

---

١ جماليات الأسلوب والتلقي صـ ٥٠ ، ٥١
٢ دفاع عن البلاغة صـ ٨٣
٣ الكشاف ٣٠١/٣ ، ٣٠٢
٤ الكشاف ٤٠٠/٣

تصرف الفعل (أتى) عن دلالته على الماضي إلى دلالته على المستقبل . والعدول بالفعل عن دلالته يصرف الفاعل (أمر الله) بدوره عن دلالته ، أو بعبارة أخرى يحدد دلالته ؛ لأن العناصر المكونة للجملة لن تبقى بدون تغير إذا صرف عنصر منها عن دلالته الأولى بقرينة ما ، و (أمر الله) في سياق هذه الآية (قيام الساعة)وقد أتى الفعل بصيغة الماضي لتحقق وقوع الأمر وقربه ... إن اختيار المفردات ووضعها معًا في إطار جملة واحدة يقوم بدور كبير في تحديد دلالة السياق اللغوي الذي ينعكس بدوره على دلالة المفردات في الجملة " .[١]

وكأن الزمن المسيطر على السياق هو الزمن المستقبل فيصير البناء الروائي رجوعًا بالذاكرة لمشهد قديم حدث منذ زمن بعيد ، مع أنه ما زال جنينًا في رحم المستقبل ، ليتم التأكيد على حدوثه والتحقق من وقوعه ، وإن تأخر به الزمن .

قال **المرادي** : " الأمور المستقبلة لما كانت في أخبار الله متيقنة ، مقطوع بها ، عبر عنها بلفظ الماضي " .[٢]

والزمخشري - دومًا - يلتمس الأسباب والعلل لتجاوز النسق القرآني للأسلوب العادي أو المألوف ، ويوضح قيمة ذلك بلاغيًا وجماليًا ؛ لذلك يأخذ بنا الزمخشري إلى قضية الترتيب في الكلام والأصل فيها ، وقيمة تقديم ما حقه التأخير ، ففي قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ و ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ و ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ و ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ (النساء ١١ ، ١٢)

نلاحظ تقدم الوصية على الدين في الآيتين السابقتين أربع مرات ، مع أن الدين مقدم على الوصية شرعًا بالإجماع ، وما يرتبط بالشرع يتقدم ويعلو دائمًا في الموروث الإسلامي ، وبذلك خالف خطُّ التنسيق اللفظي خطَّ التنسيق الاستحقاقي (الشرفي) وفي ذلك يقول **الزمخشري** : " فإن قلت : لم قدمت الوصية على الدَّيْن ، و الدَّيْن مقدم عليها في الشريعة ؟ قلت : لمّا كانت الوصية مُشْبِهَةً للميراث في كونها مأخوذة من غير عِوَض كان إخراجها مما يَشُقُّ على

---

١ انظر : النحو والدلالة صـ ١١٦

٢ المرادي . الجني الداني في حروف المعاني صـ ٢١٢. تحقيق طه محسن دار الكتاب . الموصل . العراق . سنة ١٩٧٦

الورثة ، ويتعاظمُهم ، ولا تطيب أنفسهم بها ، فكان أداؤها مَظنةً للتفريط بخلاف الدَّيْن ، فإن نفوسهم مطمئنةٌ إلى أدائه ، فلذلك جيء بالكلمة « أو » للتسوية بينهما في الوجوب " .[1]

وهنا يجلّي الزمخشري مفهومًا دقيقًا للبلاغة من حيث هي ، « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » ، حيث يصبح الكلام نقطة التقاء فاعلة بين المتكلم والمتلقي ، كما أن فيه بيانا بأن البلاغة تتدرج من الأقل إلى الأكثر ، وأنها تتدرج من الأدنى وتتطور إلى الأعلى .

ويعلل الزمخشري بلاغة الالتفات أو العدول من أسلوب إلى أسلوب بأن فيه إيقاظا للسامع وتطرية له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر . ولكن ابن الأثير يأخذ على الزمخشري أن هذا التفسير يتسم بالتعميم ، ويرى أن كل موطن جاء فيه عدول إنما جاء لنوع خصوصية اقتضت ذلك .

والحق أن الزمخشري لم يهمل وجهة نظر ابن الأثير ، بل يتفق معه تمامًا، فقد قال بعد الإشارة السابقة : " وقد تختص مواقعه بفوائد "[2] إذن فقد بين الزمخشري أن كل موقع جاء فيه عدول يشتمل على فائدة أو نكتة بلاغية تُستنبط عند تأمّل السياق . والمتصفح للكشاف يتضح له ذلك بسهولة .

ثم يصل بنا الزمان إلى **السكاكي** (ت٦٢٦هـ) فنجده أكثر البلاغيين فهما واستيعابا لهذا المبحث « المثالي والمنحرف » حيث نظر لكل من الإيجاز والإطناب باعتبارهما أمرين نسبيين . من حيث كانا ممثلين لعدول عن أصل مفترض هو « المساواة » وهي متعارف أوساط الناس .[3] فقد يكون ظاهر الكلام مطنبا وهو موجز بالقياس إلى كلام آخر ، ولذا فان تقرير مواضع الإيجاز والإطناب إنما يرجع إلى متعارف الأوساط ؛ لأن الأوساط في مُتعارفهم " لا يقدرون في تأدية المعاني على اختلاف العبارات والتصرف في لطائف الاعتبارات " .[4]

---

١ الكشاف ١/٥٠٨ ، ٥٠٩ وانظر مواضع أخري ١/١٧٤ ، ٢٠٢ ، ٣٥١ ؛ ٢/١٦٠ ، ٢٢١، ٣٤١ ، ٤٢٣ ، ٤٤٩ ، ٣/١١٠ ، ٣٠١ ، ٣٢٢ ، ٣٨٥ ، ٤/٨٧ ، ٨٦ .

٢ الكشاف ١/٦٥

٣ مفتاح العلوم صـ ١٣٣

٤ السعد (ضمن شروح التلخيص) ٣/١٦٨ ، ١٦٩ وراجع : نظرية اللغة في النقد العربي صـ ٢٢٩ ، ٢٣٠

من ذلك يتبين لنا مدى إدراك السكاكي لطابع الانحراف والمنحى الفني فيه في كل من الإيجاز والإطناب ، وذلك في ضوء وصفه لهما بأنهما نسبيـان .[1]

كما أظهر أن الكلام كلما فارق الأصل المثالي ازداد جمالاً بظهور التفاوت بين ذلك الأصل المثالي وبين ما جاء عليه نظم القرآن ، ففي قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم ٤) جملة لطائف لا تبرز إلا بمعرفة أصل معنى الكلام ؛ إذ " لا شبهة أن أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى: يا ربي قد شخت ، ثم تركت هذه المرتبة لتوخي مزيد التقدير إلى تفصيلها في : ضعف بدني وشاب رأسي ، ثم تركت هذه المرتبة الثانية لاشتمالها على التصريف إلى ثالثة أبلغ وهي : الكناية في : وهنت عظام بدني ... ثم لقصد مرتبة رابعة ، أبلغ في التقدير بنيت الكناية على المبتدأ ، فحصل : إني وهنت عظام بدني ، ثم لطلب تقرير أن الواهن هي عظام بدنه، قصدت مرتبة سادسة وهي سلوك طريق الإجمال والتفصيل ، فحصل : إني وهن العظم من بدني ... ثم لطلب شمول الوهن العظام فردًا فردًا ، قصدت مرتبة ثامنة وهي ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فردٍ فردٍ فحصل ما ترى وهو الذي في الآية ... وهكذا تُركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهي الاستعارة ... ثم تُركت إلى أبلغ وهي اشتعل رأسي شيبًا ".[2]

ويرى السكاكي أن العدول هنا أبلغ من عدة جهات : **إحداها** : إسناد الاشتعال إلى الرأس لإفادة شمول الاشتعال الرأس ؛ إذ وزان (اشتعل شيب رأسي ، واشتعل رأسي شيبًا) وزان (اشتعل النار في بيتي ، واشتعل بيتي نارًا) والفرق نيِّـر ، **وثانيتها** : الإجمال والتفصيل في طريق التمييز ، **وثالثتها** : تنكير « شيبًا » لإفادة المبالغة ، ثم ترك (اشتعل رأسي شيبًا) ثم ترك لفظ «مني» لقرينة عطف (واشتعل الرأس) على (وهن العظم مني) لمزية مزيد التقرير ، وهي إبهام حوالة تأدية مفهومه على العقل دون اللفظ .[3]

ويبني السكاكي **قوة التشبيه** أيضًا على أساس **فكرة العـدول** حيث إنه قال: " والحاصل من مراتب التشبيه ثمان ، أحدها : ذكر أركانه الأربعة ... وثانيتها : ترك المشبّه ... وثالثتها : ترك كلمة التشبيه ، كقولك : زيد أسد في الشجاعة ، وفيها نوع قوة، **ورابعتها** : ترك المشبه وكلمة التشبيه ... **وثامنتها** :

---

١ نظرية اللغة في النقد العربي صـ ٢٣٠

٢ مفتاح العلوم صـ ١٣٧ ، ١٣٨

٣ نفسه صـ ١٣٨

إفراد المشبّه به في الذِكْر ، كقولك : « أسد » . في الخبر عن زيد ، وهي كالسابعة " .[1]

فقوله : " ذكر أركانه الأربعة " ثم قوله : " ترك المشبه " ثم قوله : "ترك كلمة التشبيه " يعني بهذه الأقوال ، العدول عن الذكر لغرض بلاغي .

وتبدو براعة السكاكي في نقله لمبحث الالتفات من " البديع " إلى المعاني، لاشتماله على خاصية في التركيب يراعى بها مقتضى الحال ، كما تتمثل براعته أيضا في إدراكه لعملية العدول وتوسيع دائراتها فيما مثّل به من قول امرئ القيس :

تَطَاوَلَ لَيلُك بالأثْمَدِ ... ونام الخَليُّ ولم ترقدِ
وباتَ وباتَتْ له ليلةٌ ... كَليلة ذي العَائرِ الأرْمَدِ
وذلك مِن نبأٍ جَاءني ... وأُنْبِئْتُهُ عن أبي الأسْودِ[2]

فظاهر الحديث كان يقتضي البدء بلسان المتكلم ، فالعدول هنا ليس بالنسبة لكلام سابق ، وإنما بالنسبة للأصل الذي يجب أن يكون عليه الكلام وبهذا يدخل التجريد في مجال الالتفات .[3] ولتوضيح ذلك نتأمل أنواع الضمائر الثلاثة في الأبيات وهي كالآتي (مخاطَب ، غائب ، متكلم) تشير كلها إلى شخص واحد وهو الشاعر نفسه . والضميران في البيت الأول للمخاطب ، وهذا هو ما يسمى في البلاغة بالتجريد (أن يجرد الشاعر من نفسه شخصا آخر يخاطبه) وهي طريقة مسلوكة عند الشعراء ، ولذلك يمكن أن نعدها جزءا من اللغة الشعرية[4] ، فهي لا تلفت انتباه القارئ أو المستمع الذى تهيأ لقراءة هذا اللون من الشعر أو سماعه . ولكننا نعد تغيير الضمير في البيتين التاليين سمتين أسلوبيتين ، لأن القارئ أو المستمع للشعر لا يتوقع في كل تجريد أن يعقبه التفات ، ولا في الالتفات الأول أن يعقبه التفات ثان . ولذلك يمكن أن نمثّل تركيب هذا النسق الكبير على الوجه التالى :

---

١ مفتاح العلوم ١٦٨ .

٢ مفتاح العلوم صـ ٩٦ ، ٩٧ ، وانظر : ديوان امرئ القيس صـ ١٨٥ . تح/ محمد أبو الفضل .

٣ بين البلاغة والأسلوبية صـ٢٣٢

٤ يرى موكاروفسكي أن اللغة الشعرية تمتاز عن اللغة العربية بـ " انحرافها عن قانون اللغة المعيارية وخرقها له ، فضلا عما تمتاز به من معجم خاص وصيغ نحوية سماها الضرائر الشعرية poetisms " (انظر : مجلة فصول " **اللغة المعيارية واللغة الشعرية** " ، تر : ألفت كمال الروبي ، مج ٥ ع١ /١٩٨٥م صـ ٤١) .

نسق – مخالفة تبتدئ نسقا جديدا – مخالفة .

ودلالة التجريد والالتفات - معا في هذه الأبيات - على الاضطراب النفسي واضحة .

فليست العبرة في السمة الأسلوبية بأن يكون لها اسم في البلاغة ، استعارة أو غيرها ، إنما العبرة بأن تفاجئ القارئ أو المستمع ولو مفاجأة خفيفة، وأن تكون لها دلالة مرتبطة بالموقف .[1]

إن الانتقال المفاجئ من ضمير إلى ضمير مغاير ، يحدث اهتزازًا في مرجعية الضمير على المستوى السطحي للصياغة ، ويوهم بتعدد الأصوات ، وهنا يتم إدخال المتلقي كطرف مهم في إتمام دلالة بنية العدول ، حيث يقوم بتوجيه الضمائر (والأفعال) ، ويعيدها إلى الوحدة والاستقرار في البنية العميقة. وربما اقتضت بنية العدول حذف بعض الدوال لإبراز عمق النقلة الصياغية ، مما يحفّز عنصر التخييل عند المتلقي ، ويدفعه إلى محاولة إعادة الدوال المحذوفة لتكتمل الدلالة ... وإذا لم يتنبه إلى هذا العدول عن مقتضى الظاهر ، حدث خلل لديه في مرجعية الضمير ، وفقد تواصله مع النص ، وقلّ بالتالي انفعاله به ، وإدراكه لمراميه وجمالياته ؛ لأن بنية العدول المخالفة لمقتضى الظاهر تسهم في توليد ثنائية ضدية على المستوى الصياغي من خلال الانتقال من الغياب إلى الحضور الخطابي ، كذلك يتيح العدول في الضمائر للمبدع حرية كبيرة من إضفاء الحيوية على النص ، من خلال تعدد زوايا الرؤية ، والتحولات الدائمة من الذاتية إلى الموضوعية والعكس .[2]

وبذلك يتضح أن السكاكي يميل إلى توسيع نطاق البنية المثالية (القاعدة) التي يمثل الالتفات عدولاً عنها ، فليست القاعدة عنده " ما يمثله ظاهر العبارة ، وإنما يوسع دائرة النمط لتشمل هذا البعد الميتافيزيقي للغة ، البعد المعتمد على التقدير أيضًا ، إمعانًا في تسجيل الخلاف ، وتعميق فجوة الانحراف بين المقولة النحوية والأسلوب البليغ " .[3]

أما **ابن الأثير** (ت٦٣٧هـ) فقد تناول فكرة « العدول » من خلال حديثه عن « الالتفات » ، وهو يرى أن حدَّ الالتفات هو العدول أو " الانتقال من صيغة إلى صيغة كانتقال من خطاب حاضر إلى غائب أو من خطاب غائب إلى

١ اللغة والإبداع صـ ٩٦
٢ تحولات البنية في البلاغة العربية صـ ٣١٧ ، ٣١٨ (بتصرف)
٣ د/ عبد الحكيم راضي : نظرية اللغة في النقد العربي صـ ٢٥٠.

حاضر ، أو من فعل ماض إلى مستقبل ، أو من مستقبل إلى ماض، أو غير ذلك ... ويسمى أيضًا **شجاعة العربية** " .[1] ومن ثم جعله خلاصة علم البيـان .

وقد قسم ابن الأثير الالتفات إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة، وذلك لفوائد متعددة يحددها سياق الخطاب ، ولذلك لا يمكن أن تحدد فوائده بجزئية محددة بالتفنّن ، أو بتطرية نشاط السامع ، وإيقاظه للإصغاء إليه، كما يرى الزمخشري .[2]

فمن شواهد العدول من الغيبة إلى الخطاب قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة ٢ – ٥) عدل فيها عن الغيبة (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) إلى الخطاب (إياك نعبد وإياك نستعين) لأن الحمد دون العبادة . ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال الحمد لله ، ولم يقل الحمد لك . ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : إياك نعبد ، فخاطب بالعبادة إصراحا بها ، وتقربا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها . وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فأصرح بالخطاب لما ذكر النعمة ، ثم قال : ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ، عطفا على الأول ؛ لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفًا عن ذكر الغاضب ، فأسند النعمة إليه لفظا ، وزوى عنه لفظ الغضب تحننا ولطفًا .[3]

---

١ المثل السائر ١٦٧/٢ ، ١٦٨ ، وانظر : الطراز ١٣١/٢ ، وما بعدها . **وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن جني له فضل السبق في هذه التسمية** . (راجع صـ ٤٠ من هذا البحث)

٢ المثل السائر ١٦٨/٢ . لم يحدد الزمخشري فائدة الالتفات في جزئية محددة كما زعم ابن الأثير ، وإنما أطلق فوائد الالتفات حيث قال : " وقد تختص مواقفه بفوائد " (راجع الكشاف ٦٤/١).

٣ المثل السائر ١٧٠/٢ ، ومفتاح العلوم صـ ٩٦

وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة [1] لتلك العلة نفسها ، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا ، فمخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه .

من هذا المثال يتضح أن الهدف المعنوي الواحد ، وهو هنا تعظيم شأن المخاطب ، قد اقتضى في مرة العدول عن الغيبة إلى الخطاب ، وفى مرة أخرى – في النص نفسه – العدول عن الخطاب إلى الغيبة . وهذا ما يؤكد أن المنحى الأسلوبي في ذاته لا يرتبط بقيمة ثابتة ، أو بدلالة تعبيرية حاسمة ونهائية ، تكون هى وحدها الصادقة ، وأن المعول فى استخدام منحى أسلوب بعينه فى سياق بعينه على المعنى أو الهدف المعنوي الذى يتجه إليه منشئ الخطاب ، فإذا كان تعظيم شأن المخاطب هدف من أهداف منشئ الخطاب ، فإن تحقيق ذلك الهدف هو الذي دعاه إلى العدول عن خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر مرة ، وعن خطاب الحاضر إلى خطاب الغائب مرة أخرى . [2]

ومن شواهد **العدول عن ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب** قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۝ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ (مريم ٨٨ ، ٨٩) وهذا الشاهد يتعلق أيضا بالعدول عن ضمير الغائب إلى ضمير المخاطب ، ومع أن هذا الأسلوب متحقق فى فاتحة الكتاب كما رأينا ، فإننا آثرنا إيراد هذا المثال كذلك بمغزى خاص سيتضح فى استخلاصاتنا . وإنما قيل : " لقد جئتم " وهو خطاب للحاضر بعد قوله : " وقالوا " وهو خطاب للغائب لفائدة حسنة ، وهي زيادة التسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى ، والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عِظم ما قالوه ، كأنه يخاطب قومًا حاضرين بين يديه منكرًا عليهم ، وموبّخًا لهم " . [3]

فالانتقال هنا من الغيبة إلى الحضور كان موجها بهدف معنوي ، لم يكن ليتحقق بالقوة نفسها إلا عن طريق هذا الانتقال (من المهم – جماليا – فى هذا المثال ملاحظة أن المخاطب ليس حاضرًا حضورًا حقيقيًّا ، وإنما هو حاضر

---

١ اعترض السبكي على هذا الالتفات بأنه ليس في قوله : « غير المغضوب » ضمير غيبة ، حيث قال : "الفاعل في « المغضوب » لم يُذكر بالكلية ، فكيف يقال : انتقلنا إليه على سبيل الالتفات ؟ " - عروس الأفراح ٤٧٨/١

٢ جماليات الالتفات صـ ٨٩٢ . د/ عز الدين إسماعيل ضمن « قراءة جديدة لتراثنا النقدي » . المجلد الأخر . النادي الأدبي الثقافي بجدة . ١٩٨٨ .

٣ المثل السائر ١٧١/٢

على " التمثيل ") وهكذا يكون الانتقال من الغيبة إلى الحضور مدفوعًا مرة بهدف معنوي ، هو تعظيم شأن المخاطب ، كما هو الحال في المثال الأول ، ومرة بهدف توبيخ المخاطب ، كما هو الشأن في المثال الثاني ، أي أن الصيغة الواحدة قد تؤدي وظيفتين متضادتين في سياقين مختلفين .

وأما **العدول من الخطاب إلى الغيبة** ، كقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ (يونس ٢٢) " إنما صرف الكلام هاهنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة ، وهي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ، ويستدعي منهم الإنكار عليهم " .[1] ولو قال : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتهم بها . وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ، لذهبت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة . وليس ذلك بخاف على نقدة الكلام " .[2]

يجب أن نلاحظ أن الكلام في مستهل النص موجه إلى المخاطبين الحاضرين (حضورا فعليا أو مفترضا فلا أهمية لهذا الآن) ، ثم إذا به فجأة ينحرف عن هذا النسق ليدخل في نسق الرواية عن الغائبين (هم – فرحوا – جاءهم – وظنوا – انهم – بهم – دعوا) . ولو أن النسق الأول اطرد لجرى الخطاب كله على النحو التالي: هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءكم الموج من كل مكان ، وظننتم أنكم أحيط بكم دعوتم الله ... لكن الخطاب لم يطرد على هذا النحو ، بل ما لبث أن انحرف من حالة الحضور إلى حالة الغيبة . والسبب في هذا الانحراف كما يرصده ضياء الدين هو افتراض أن هناك آخرين – غير المخاطبين في مستهل النص – يصور لهم المشهد ، وليسوا هم المعنيين به ، فاقتضى الأمر عندئذ الدخول في نسق الغيبة ، كما تحكى لمستمعين - حاضرين أو متوهمين - تفصيلات حادث قد وقع لشخص ما أو لأشخاص بأعيانهم ، فتثير عندئذ فيهم الدهشة لما حدث ، وتمهدهم بذلك لاستنباط العبرة أو المغزى الأخير للرواية كلها . والمغزى أو المقصد المعنوي الذى تهدف الرواية إليه هنا هو استنكار أن يقع من هؤلاء المروى عنهم ما وقع . والحقيقة أن المخاطبين فى صدر النص قد انقلبوا إلى الغائبين فأحدث هذا الانقلاب مسافة

---

١ المثل السائر ١٧٨/٢
٢ نفسه ١٧٨/٢

يتأملون فيها أنفسهم وما وقع منهم كأنهم آخرون ، وعندئذ يكونون أقدر على الشهادة على أنفسهم . فالمتورط فى الخطيئة لن يعى موقفه وعيا صحيحًا إلا إذا سلخ نفسه من نفسه وتأملها من بُعْدٍ مناسبٍ ، أي جعلها موضوعا للنظر . وهذا ما حققه الرجوع من الخطاب إلى الغيبة فى هذا المثال ، أو ما " أنتجه " – بلفظ ضياء الدين – من دلالة .[1]

القسم الثاني : **هو العدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر** ... " وليس الانتقال فيه من صيغة إلى صيغة طلبًا للتوسع في أساليب الكلام فقط ... وإنما يُقصد إليه تعظيمًا لحال من أُجْرِيَ عليه الفعلُ المستقبلُ ، وتفخيمًا لأمره ، وبالضد من ذلك فيمن أُجْرِيَ عليه فعل الأمر " .[2]

فمن شواهد **العدول عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر** قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (هود ٥٣ ، ٥٤) .

تتحرك الآية الكريمة في سياق الزمن الحاضر، أو ما يعرف بـ " حاضر السرد " لأنها واردة في سياق حكاية قصة نبي الله هود عليه السلام مع قومه . ويهيمن على الصياغة طرفان متباعدان : هود عليه السلام في معية الله تعالى ، وقوم هود وآلهتهم المزعومة. وقد بدأت الصياغة باستخدام صيغة المضارع (أشهد) حين ذكر لفظ الجلالة (الله) ، لإفادة أن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، ووسيلة لتثبيت دعائم اليقين ، وشد معاقد التوحيد .

ثم تتباعد المواقف بين الطرفين، وتتسع الهوة بينهما، فيكون الانتقال إلى صيغة الأمر (واشهدوا) ، التي تستلزم طرفين: آمر مطاع مهيب مفخم (هود عليه السلام) ، ومأمور ضعيف مهين (قوم هود) . فالانتقال إلى صيغة الأمر أفاد حدوث الجفاء التام، والتهاون بدينهم وآلهتهم المزعومة ، والتهكم بحالهم ومعتقداتهم الباطلة .

---

١ جماليات الالتفات صـ ٨٩٨ ، يُراجع : المثل السائر ١٧٨/٢

٢ المثل السائر ١٧٩/٢

وقد جسد " **الأسلوب العدولي** " بصياغته المخالفة لمقتضى الظاهر مواقف الطرفين المتباعدين عن طريق ذكر صيغة المضارع التي توضح تشريف الطرف الأول وقوته وعظمته – وهو هود عليه السلام – ، ثم العدول عنها إلى صيغة الأمر الدالة على حقارة شأن الطرف الثاني – وهم قومه – ، وبطلان موقفهم الذليل .

قال ابن الأثير : " فإنما قال : " أشهد الله واشهدوا " ولم يقل : «وأشهدكم»، ليكون موازنًا له وبمعناه ؛ لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: « أشهد على أني أحبك » ، تهكمًا به واستهانة بحاله " .[١]

إذن فاطراد النسق هنا – لو تحقق – يكفل التوازن بين الفعلين ، ويوحد المعني فيهما . لكن اطراد النسق عندئذ يضعهم – في حق الشهادة – على مستوى واحد مع من له الشهادة جل شأنه . ولا يمكن لإنسان – فضلاً عن نبي – أن يوحد بين شهادة خالقه عليه وشهادة البشر ، خصوصًا إذا كان منكرًا لهم أصلاً . فهنا شهادتان لا شهادة واحدة ، وسلكهما في نسق واحد – وإن كان هو النسق اللغوي الأصلي – من شأنه أن يذهب بالتفرقة الحاسمة بينهما . نحن في هذا النص أمام « إشهاد » " أشهد الله " ، و « شهادة » " اشهدوا " ، ولا يملك الإنسان/ النبي إلا أن يُشهد الله تعالي على ما في نفسه ، أن يكشف له نفسه على حقيقتها ، لكنه لا يملك أن يأمره سبحانه ، أما بالنسبة إلى البشر ، فإنه يأمرهم بأن يشهدوا بأنفسهم ما يكون منه ، لأنه لا يجد نفسه أمامهم مطالبًا بأن يشهدهم على ما في نفسه ، خصوصًا إذا كان منكرًا لهم ، ورافضًا لمعتقدهم ، ومستهينًا بهم .[٢]

ومثال **العدول عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر** ، يقول ابن الأثير : "... وإنما يُفعل ذلك توكيدًا لما أجْري عليه فعل الأمر ، لمكان العناية بتحقيقه ، كقوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ (الأعراف ٢٩) وكان تقدير الكلام : أمر ربي بالقسط

---

١ المثل السائر ١٧٩/٢ ، ١٨٠ ، والكشاف ٢٧٦/٢

٢ جماليات الالتفات صـ٨٩٩ ، ٩٠٠

وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر ، للعناية بتوكيده في نفوسهم ، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ، ثم أتبعها بالإخلاص الذي هو عمل القلب ، إذ عملُ الجوارح لا يصحّ إلا بإخلاص النية .

رأينا من قبل أن الانتقال من الغيبة إلى الحضور يكون مرة تعظيمًا لشأن المخاطب ، ومرة أخرى تحقيرًا لشأنه ، أي أن الصيغة الواحدة قد تؤدي وظيفتين متضادتين في سياقين مختلفين . وكذلك الأمر هنا في العدول عن نسق الأفعال المطرد ، حيث يكون الانتقال إلى فعل الأمر دالاً على الاستهانة والاستخفاف بالمخاطب في مرة ، و دالاً على العناية والاهتمام به ، كما في هذا المثال الأخير في مرة أخرى .

<u>القسم الثالث</u> : الإخبار عن الماضي بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضي ، فمثال **العدول عن الماضي إلى المستقبل** قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحج ٦٣) ألا ترى كيف عدل عن اللفظ الماضي " أنزل " هاهنا إلى المستقبل " فتصبح الأرض مخضرة " ولم يقل : « فأصبحت » عطفًا على « أنزل » وذلك لفائدة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان ، فإنزال الماء مضى وجوده ، واخضرار الأرض باق لم يمض ... " .[١] واستمرار الأرض خضراء يشيع البهجة ، ويطمئن الناس على دوام أرزاقهم .

ورأى السكاكي أن العدول في هذه الصورة – من الماضي إلى المضارع – يصير أصلاً بلاغيًّا ثابتًا ، إذا اقتضى السياق اللجوء إليه ، فقال : " وإنه – أي الانتقال من التعبير بالماضي إلى المضارع – طريق للبلغاء لا يعدلون عنه، إذا اقتضى المقام سلوكه " .[٢]

وأطلق عليها " فندريس " مصطلح " المضارع التاريخي " وقال : "الماضي يمكن أن يعبر عنه بالحاضر ، وهو استعمال شائع في الحكاية " .[٣]

---

١ المثل السائر ١٨٤/٢، ١٨٥

٢ السكاكي: مفتاح العلوم صـ ١٣٩

٣ ج. فندريس: اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، سنة ١٩٥٠، صـ ١٣٨

إن صيغة الماضي تخيل للسامع صورة حدث وقع فى لحظة من الزمان وانقطع ، وعندئذ لا يكون هناك ما يحمله على أن ينهمك فيه ؛ لأنه انتهى لكن الانتقال إلى صيغة الفعل المستقبل تخلق وضعًا جديدًا ، إذ " تخيل للسامع أنه مباشر للفعل " [١] – على حد قول ضياء الدين – وكأن الفعل يقع أمام ناظريه في حالة حضور .

« فالإخبار البلاغي » عن الماضي بالمستقبل يؤدى إذن وظيفة ما كان اطراد النسق الماضي ليؤديها . وتتمثل هذه الوظيفة فى العدول بالخطاب من مجرد الإعلام بالحدث إلى حكاية الحدث نفسه ، أي تمثيله فى صورة حية (وهذا الانتقال شبيه بالانتقال من السرد الملحمي إلى التجسيد الدرامي) فالإخبار عن الحدث الماضي بفعلٍ مستقبل من شأنه استحضار صورة هذا الحدث أمام مخيلة المتلقي ليعايشها بنفسه ، فيكون إحساسه بها وتفاعله معها أقوى و أوثق . [٢]

ومن شواهد **العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضي** ، قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ** ﴾ (النمل ٨٧)

يقول ابن الأثير : " إنما قال : « ففزع » بلفظ الماضي بعد قوله : « يُنفخ» – وهو مستقبل – للإشعار بتحقيق الفزع ، وأنه كائن لا محالة ؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به " . [٣]

هكذا يعمل « الأسلوب العدولي » هذه البلاغات بما يحدث من انحراف في الزمن فترى المستقبل حاضرًا ومنحلا في الماضي ، كما ترى الماضيَ حالاً في الحاضر ممتدًا في المستقبل .

وبعد ، فقد بيّنا جهدَ ابن الأثير وتطويره لمصطلح « الالتفات/ العدول» إذ نقل المصطلح إلى مجال أوسع من سابقيه ، فأحدث بذلك تآلفًا تامًّا بين ثنائية التخير والتركيب أو المستوى الأفقي والمستوى الرأسي ... كما أنه كشف عن علاقة العدول بالإيجاز ؛ لأن ترابط الأساليب وتلاحقها وبحث العلاقة فيما بينها مما يدلل على أن اللغة الأدبية كانت تعتمد على الإيجاز لاستيفاء المعنى وإشراك المتلقي .

---

١ المثل السائر ١٨٣/٢
٢ جماليات الالتفات صـ ٩٠٢
٣ المثل السائر ١٨٥/٢

وممن تبع مذهب ابن الأثير في توسيع دائرة العدول ليشمل أنماطًا شتى **الطوفي**[١] **والتنوخي**[٢] **وابن النقيب**[٣] **ونجم الدين ابن الأثير**[٤] **والعلوي**[٥] **والسبكي**[٦] **والسيوطي**[٧] .

وبهذا يتضح لنا أن البلاغيين لا يعتدون – غالبًا – من حيث القيمة الجمالية إلا بما يمثل عدولاً عن أصل معنى الكلام ، بل يمكن أن نخلص إلى أن البحث البلاغي عند العرب يتركز على مقولتين هما : الأصل المألوف ثم العدول عنه ، مع بيان مراتب العدول وآثارها الجمالية ، التي تتصل بالمعنى وتلونه ، وتصله بحالة المخاطب في غالب الأحيان ، وبحالة المتكلم في القليل منها " .[٨]

كذلك ترى أن كلا من اللغويين والنحاة والبلاغيين قد التقوا جميعًا حول تصور مشترك لقضية « العدول » ولم يكن هذا التصور قائمًا على مفهوم اللفظ دون المعنى ، إذ « العدول » لا يتم إلا لأداء معنى جديد ، بل أوغل عبد القاهر في بيان درجة هذا المعنى ، وجعله « معنى المعنى » متساوقًا مع تقسيم الفارابي للغة الخطاب ، فكان معنى المعنى الذي يحدث بفاعلية « العدول » هو فحوى شعرية اللغة عند الفارابي .[٩]

إن ثنائية اللغة والخطاب الأدبي في الفكر البلاغي كانت تعبيرًا عن تطور الوعي الجمالي ، ومقياسًا لمقدار العدول ومن ثم مدى التأثير في المتلقي. فمبحث العدول كان تعميقًا لفلسفة التأمل وتأسيسًا لاستبطان النص وتأويل محاسنه .[١٠]

في ضوء هذا المنظور كان تعريف **الأسلوب العدولي** بأنه « انحراف عن قاعدة ما » أو بأنه « لحن مبرر » أو هو « انحراف عن نموذج آخر من

---

١ الإكسير في علم التفسير صـ ١٤٠
٢ الأقصى القريب صـ ٤٥ ، ٤٦
٣ مقدمة تفسير ابن النقيب صـ ٢٠٢ - ٢١٣
٤ جوهر الكنز صـ ١١٩ - ١٢٥
٥ الطراز ١٣١/٢ ، وما بعدها
٦ عروس الأفراح ٤٩١/١ - ٤٩٣
٧ الإتقان في علوم القرآن ٢٥٨/٣ ، وشرح عقود الجمان صـ ٣٠
٨ البلاغة والأسلوبية صـ ٢٧٠
٩ العدول صـ ٢٠
١٠ فلسفة الجمال في البلاغة العربية صـ ٢٥٦

القول ، ينظر إليه على أنه نمط معياري » أو هو « مجموع المفارقات التي نلاحظها بين نظام التركيب اللغوي للخطاب الأدبي وغيره من الأنظمة » .[1] أي أن الأسلوب العدولي يُعدّ لونًا من ألوان الاجتراء على نظام تلك اللغة ، بالانحراف عن أنماطها ، والانتهاك المطرد لتقاليدها وأعرافها ، وخروج متعمّد على تلك الأعراف ، فيتولد بواسطة هذا الإجراء من طاقات التعبير والإيحاء ما تعجز به اللغة في مستواها النمطي السائد عن تحقيقه .

وعلى ذلك فإن « الشجاعة » في هذا المصطلح لا تعني شجاعة اللغة العربية بالعدول ، بل شجاعة العدول في تلك اللغة .

ثالثًا : تداولية العدول وأسبابه :

إن « الأسلوب العدولي » ظاهرة أسلوبية بارزة في حركة اللغة الأدبية ، حيث تتحور اللفظة في موضعها تحورًا غير مألوف يفرز دلالة فيها كثير مما لا يتوقعه المتلقي ، وفيها كثير من إمكانات المبدع في استعمال الطاقات التعبيرية الكامنة في اللغة .[2]

يكتسب العدول تداوليته من تغيير الأساليب والصيغ الزمانية والمكانية والكلمات . أضف إلى ذلك التجنيس في الكلمات والتلوين في الألفاظ والحروف لمباغتة المتلقي والتأثير فيه بنقله من قضية إلى قضية . وتكمن تداولية العدول في مراعاة منشئ الخطاب للمتلقي ، فهذا الأخير هو السبب الأول في لجوء منشئ الخطاب إلى إحداث العدول في الأساليب والصيغ والضمائر والمعجم ... وكما سبقت الإشارة فإن العدول لون بلاغي نابع من تجاربنا الكلامية ومعارفنا حول أنفسنا التي ترفض التكرار الممل ، وتجنح نحو البديل والتغيير والتلوين في أساليب الكلام وصيغه وأشكاله ، كما تنفر نفوسنا وأذواقنا وأحاسيسنا الجمالية المتطورة دومًا من النبرة نفسها ، والنغمة نفسها ، والإيقاع عينه .

يقول **الزمخشري** : " إن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ، وتختص مواقعه بفوائد " .[3]

---

١ انظر في هذه التعريفات وغيرها : الأسلوبية والأسلوب صـ ٢٧ ، علم الأسلوب صـ ١٧٩ ، دليل الدراسات الأسلوبية صـ ٣٧ ، بناء لغة الشعر صـ ٢٤ – ٢٥ .

٢ د/ محمد عبد المطلب : جدلية الإفراد والتركيب صـ ١٨٨

٣ الكشاف ٦٤/١

ولعلنا نلحظ تعبير الزمخشري بلفظة « فوائد » جمعًا ونكرة ، لتعني تعدد جماليات العدول بتعدد مواقعه ، كما أنها تعني التأثير المُفضي إلى التجديد والتحديث والتطوير في فنون القول وضروب الكلام ، وأنماط الحديث ، وأنواع الأدب القائم على التمثيل زيادة على التقدم في الأفعال والأعمال والممارسات والمنجزات الفكرية والمادية ، حيث يتفاعل الماديّ والفكريّ ، الواقعيّ والأدبيّ ، مثلما تتفاعل التجربة والبلاغة . فإذا كان بعض البلاغيين يعتبرون الالتفات وهو أحد أنواع العدول ، هو الوجه البلاغي المُجسّد لشجاعة العربية ، فإنهم يقصدون بذلك شجاعة منشئ الخطاب ومدى قدرته على الإبداع في التعبير بما يُحدثه فيه من تشكيلات عدولية وتنويع الأسلوب استجابة لأفق انتظار المتلقي أو لإدهاشه أو مفاجأته بالانتقال من حال إلى حال أو من معنى إلى آخر أو من طريقة إلى أخرى . والانتقال أو التغيير أساس من أسس التداولية مثل تكييف أفعال الكلام بحسب المتلقي ومقامه .[1]

وبقدر ما يراعى حال المتلقي في أسلوب العدول بتنشيطه ، وإزالة السأمة عنه ، وتنبيهه – بنقل الكلام من صيغة إلى صيغة أخرى – إلى وجوه من الحسن لابد أن يعيها ، فإن الأسلوب العدولي مدين بما فيه من قيم بلاغية إلى الحضور الواضح للمبدع الذي يتطلع إلى إيصال رسالة إلى المتلقي بكل ما فيها من قيم جمالية ، فينحرف بالأسلوب عن نمط الأداء المألوف (المعتاد) ليحقق ما يريده من أهداف يعجِـز عن توصيلها التركيب العادي. كما قد يمثل العدول نازعًا نفسيًّا يوحي بتضارب الأشياء والأحداث ، وتداخلها في العقل الباطن للمبدع ، ويكون العدول هو التمثيل اللغوي لهذا النزوع النفسي .

وقد جعله ابن جني من أبواب « شجاعة العربية »[2] ، واقتبس ابن الأثير تسمية ابن جني ، وتبعه الطوفي في " الإكسير "[3] والعلوي في " الطراز "[4] .

وقد اتجه بعض البلاغيين في رصدهم للقيمة الجمالية للالتفات/ العدول إلى النظر إلى الصيغة وما تحويه من إمكانات لغوية مجاوزة تخرق المألوف ،

---

١ اللغة ودلالاتها . محمد سويرتي . مجلة عالم الفكر . م ٢٨ . ع ٣ . يناير - مارس /٢٠٠٠م. (بتصرف كبير من جانبنا)

٢ ذكره ابن جني عند توجيهه لقراءة الحسن لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٨١) حيث قرأها (يُرجعون) بياء مضمومة. يراجع المحتسب ١٤٥/١ ، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، القاهرة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سنة ١٣٨٦هـ .
وذكر ابن جني أبواب شجاعة العربية، وعد منها الحذف، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، في كتابه الخصائص: ٣٦٢/٢ وما بعدها.

٣ الطوفي : الإكسير في علم التفسير صـ ١٤٠ ، تحقيق د/ عبد القادر حسين .

٤ العلوي : الطراز، ١٣١/٢.

وتكسر آلية اللغة المعتادة [1] من خلال العدول عن صيغة إلى أخرى مخالفة لمقتضى الظاهر، وهذا العدول يعد تفننا في الكلام وتصرفًا فيه يكسب النص قيمة جمالية، وينبه إلى أسرار بلاغية كثيرة يتعمدها المبدع أو منشئ الخطاب .

وقد جلّى ابن جني أبعاد هذا المقصد الفني حين صرّح بأن انحراف الشاعر عن أعراف لغته لا يرجع إلى قصوره أو عجزه عن السير في مسارها الممهد ؛ بل لأنه يحس بأن المسار الآخر الذي يسلكه (الأسلوب العدولي) هو – رغم ما يحف به من نتوء ومنحنيات – أقدر تصويرًا لرؤاه المتفردة، وتبليغًا لغاياته ومراميه البعيدة . فيقول : " ... فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها فاعلم أن ذلك على ما جَشِمَهُ منه وإن دل من وجه على جَوْره وتعسُّفه ؛ فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمُّطه وليس دليلاً على ضعف لغته، ولا قصورًا عن اختيار الوجه الناطق بفصاحته، بل مَثَلَهُ في ذلك عندي مَثَلُ مُجْرِي الجَمُوح بلا لجام، ووارد الحرب الضَّروس حاسرًا من غير احتشام، فهو وإن كان ملومًا في عنفه وتهالكه، فإنه مشهود له بشجاعته وفيض مِنَّتِه " . [2]

ثم نجد **الزمخشري** يشير إلى أن **وظيفة العدول البلاغية** تتمثل في فائدتين : **إحداهما** عامّة في كل صورة، وهي إمتاع المتلقي وجذب انتباهه بتلك النتوءات أو التحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير، **والأخرى** خاصة تتمثل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور – في موقعها من السياق الذي ترد فيه – من إيحاءات ودلالات خاصة، وهاك قوله : " إن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد " . [3]

يُفهم من العبارة السابقة أن الزمخشري جعل لكل موطن من مواطن العدول فائدة تتحقق من خلال السياق الذي وردت فيه .

ورغم إشارة الزمخشري الواضحة إلى اختصاص كل موقع من مواقع العدول بفائدة تستنبط من السياق، فإن ابن الأثير ينتقده بالتوقف عند العامل

---

١ من النقاد المعاصرين من سمّاه « كسر النظام » وقرنه بالانحراف . يُنظر : نظرية البنائية صـ ٣٧٥ ، وما بعدها ، وعلم الأسلوب صـ ٢٣٦ ، وما بعدها

٢ الخصائص ٢/٣٩٤

٣ الكشاف ١/٦٥ ، وانظر : مفتاح العلوم صـ ٩٦ ، ٩٧ ، والإيضاح صـ ٧٧ ، والطراز ٢/١٣٣، والبرهان في علوم القرآن ٣/٣١٤ ، حاشية الدسوقي على مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ١/ ٤٧٢ .

النفسي في تفسير الظاهرة ، قبل أن يطرح تفسيره البديل ، وهو غير محق في ذلك ، لأننا نجده ينقل عن الزمخشري تحليلاته في هذا المبحث نقلا يكاد يكون حرفيا ، دون أن يشير إلى ذلك .[١] ولكن على كل حال ، إن ما قدمه ابن الأثير من بيان فائدة الالتفات وبلاغة الأسلوب العدولي يتفق مع الزمخشري اتفاقًا بينًا .

وممن تابع الزمخشري في ذلك السكاكي الذي علق قيمة العدول بوجود «المتلقي المثالي» الذي يحسن تلقي النص ، ويتفاعل معه ، ويدرك أنماط العدول في بنيته ومراميه ، فقال : " وهذا النوع قد تختصُّ مواقعُه بلطائف معانٍ قلّما تتضحُ إلا لأفرادِ بلغائهم ، أو للحُذّاق المَهَرَةِ في هذا الفن ، والعلماءِ النحارير . ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق ، وأورث السامعَ زيادةَ هِزّةٍ ونشاط ، ووجد عنده من القبول أرفعَ منزلةٍ ومحلٍّ إن كان ممن يسمع ويعقل ، وقليل ما هم ... ولأمر ما وقع التباين الخارج عن الحدّ بين مُفسرٍ لكلام رب العزة ومفسر ، وبين غواص في بحر فرائده وغواص ، وكل التفاتٍ واردٍ في القرآن متى صرت من سامعيه عرّفك ما موقعه " .[٢]

ويقول ابن الأثير مبينًا الهدف الذي يقصد إليه المبدع من سلوك طريق العدول : " اعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان ، أن العدول من صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، ولا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة ... فإنه من أشكل ضروب علم البيان ، وأدقها فهمًا ، وأغمضها طريقًا " .[٣]

ويقول في موضع آخر مبينًا تعدد الأغراض المقصودة من العدول بتعدد مواقعه : " إن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعبًا كثيرة لا تنحصر ، وإنما يُؤتَى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه " .[٤] لذلك قد تتعدد الأهداف الدلالية للعدول ، وقد تنقلب الدلالة في أسلوب إلى نقيضها في أسلوب آخر مماثل للأول في بنيته المخالفة لمقتضى الظاهر ، ويرجع ذلك إلى اختلاف السياق وقرائن الأحوال .

---

١ انظر المثل السائر ١٧٠/٢-١٨٠) وقارن بالكشاف ٦٥/١ ، ٢٧٦/٢ ، ٣٨/٣ .
٢ السكاكي : المفتاح صـ ٩٦
٣ المثل السائر ١٨٠/٢
٤ المثل السائر ١٧٠/٢ ، والطراز ١٣٢/٢

ففي تحليل ابن الأثير لسورة « الفاتحة » بيّن أن العدول في أولها من الغيبة إلى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ، ثم انتقل فى آخرها من الخطاب إلى الغيبة لتلك العلة نفسها ، وهى تعظيم شأن المخاطب أيضا ، فمخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه .

ومن هذا المثال اتّضح أن الهدف المعنوي الواحد - وهو هنا تعظيم شأن المخاطب - قد اقتضى فى مرة العدول عن الغيبة إلى الخطاب ، وفى مرة أخرى – فى النص نفسه – العدول عن الخطاب إلى الغيبة . وهذا ما يؤكد أن المنحى الأسلوبي فى ذاته لا يرتبط بقيمة ثابتة ، أو بدلالة تعبيرية حاسمة ونهائية ، تكون هى وحدها الصادقة ، وأن المعول فى استخدام منحى أسلوب بعينه فى سياق بعينه على المعنى أو **الهدف المعنوي** الذى يتجه إليه منشئ الخطاب ، فإذا كان تعظيم شأن المخاطب هدفًا من أهداف منشئ الخطاب ، فإن تحقيق ذلك الهدف هو الذي دعاه إلى العدول مرة عن خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر ، ومرة عن خطاب الحاضر إلى خطاب الغائب .[١]

ويتفق مع هؤلاء بلاغي آخر هو **نجم الدين ابن الأثير الحلبي** (ت٧٣٧هـ) الذي نصّ على أن الالتفات " **من نعوت المعاني** "[٢] ذلك بأن كل حالة من حالات العدول تنطوي على معنى بعينه يقصد إليه منشئ الخطاب ، فقد ترد صيغة ما من صيغ العدول فى سياق بعينه لتشير إلى المعنى المقصود ، ثم ترد هذه الصيغة نفسها فى سياق آخر لتشير إلى معنى آخر مقصود هو نقيض للمعنى الأول . وهذا يعنى خصوصية الدلالة في كل حالة . وهذا يتضح من قول ضياء الدين إن " الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه وهو ضد الأول ، قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هو مقصور على المعنى المقصود " .[٣]

ونظرة الرجلين إلى بلاغة الأسلوب العدولي بهذه الإشارة العميقة قريبة من التنظير النقدي المعاصر ، حيث يرى صاحبا نظرية الأدب أنه ليس ممكنًا القول بأن لكل أداة تعبيرية تأثيرًا محددًا ، أو قيمة تعبيرية محددة في جميع السياقات التي تقع فيها ، فتتوالى الجمل المعطوفة بحرف العطف **And** مثلاً ، قد

---

١ جماليات الالتفات صـ ٨٩٢
٢ جوهر الكنز صـ١١٩
٣ المثل السائر ١٦٩/٢ (بتصرف)

يوحي في الكتاب المقدس أو كتب الأخبار بالسرد البطيء للأحداث ، ولكنه قد يوحي في قصيدة رومانسية بمشاعر هائجة متدفقة . والمبالغة قد تخلق جوًّا تراجيديًّا أو شجيًّا ، ولكنها في الوقت نفسه قد تخلق جوًّا كوميديًّا أو فكاهة سوداء.[١]

إذن في كل حالة من حالات استخدام العدول هناك أصل لمعنى مقصود هو" سياق الخطاب " فالسياق هو الذي يحسم ما إذا كان هذا النوع من العدول أو ذاك قد قصد به هذا المعنى أو نقيضه [٢] أو لِنَـقُـلْ : إن السياق هو الذي يوجه منشئ الخطاب في موضع بعينه إلى استخدام هذا الأسلوب أو ذاك ، أو هذه الصيغة أو تلك . ومن ثَـمّ فهو يعمد في كل حالة إلى استنطاق السياق والاسترشاد به . ذلك لأن الكلمة في الاستعمال لا تحمل معناها المعجمي فقط **dictionary meaning** وإنما تثير معها طائفة من المترادفات والمشتركات اللفظية ... فهي لا تحمل معناها وكفى ، وإنما تثير معانيَ الكلمات التي ترتبط بها ارتباطًا صوتيًّا أو معنويًّا أو اشتقاقيًّا أو دلاليًّا ، أو حتى الكلمات التي تتضاد معها وتتخالف .[٣]

ولما كان للسياق هذه الأهمية الأكيدة ؛ لأنه هو الوجه الغائب لنص الخطاب فقد وجب على متأمل الأسلوب العدولي في قراءته للنصوص ألا يعتمد على وجهها الظاهر– أي على صياغتها اللغوية – بل على ذلك الوجه الغائب الذى يتطلب في قراءته وتأويله بصيرة نافذة ، وحسا مرهفا ، ويقظة مفرطة .

والعدول من الأساليب البلاغية التي ترتبط بالمبدع ، وتأكيد دوره وحضوره فيها ، بوصفه القاصد إلى تشكيل صور العدول المختلفة ، حيث نلمس ذلك في دراستهم لمواضع الالتفات في الشعر ، وفي القرآن الكريم أيضًا .

إذن نستطيع أن نقرر أن **وظيفة العدول** هي : التقاط الانحرافات بالنسق عن مقتضى ظاهره ، أو التحولات التعبيرية في لغة الأدب للكشف عن شحناتها التأثيرية أو الدلالية ، لذلك فهو يقوم على اختيار واع بين الإمكانات التي تتيحها اللغة للمتكلم ، والمعنى الذي يتحرك في نفسه ، سواء كان هذا الاختيار في نطاق المعجم (كما في إيثار لفظة بعينها والعدول إليها دون مرادفها) أم في

---

١ Wellek, Rene / Warren, Austin, Theory of Literature, Penguin Books, Great Britain (١٩٨٢) p. ١٧٨
وينظر : اللغة والإبداع الأدبي صـ ٢٠

٢ جون لايمز . اللغة والمعني والسياق تر/ عباس صادق . دار الشئون الثقافية . بغداد ١٩٨٧ صـ٢٢٦ .

٣ Wellek, Rene / Warren, Austin, Theory of Literature, Penguin Books, Great Britain (١٩٨٢) p. ١٧٥
وينظر : اللغة والإبداع الأدبي صـ ٢٠

نظام النحو (كما في إيثار صورة بعينها من صور تركيب العبارة ، والعدول إليها دون أخرى تعادلها في أداء أصل معناها) .

ولا شك أن الأسلوب العدولي يُحدث إثارة لدى المتلقي نتيجة التضاد الناجم عن الاختلاف الحادث من كسر النظام ؛ لأن كسر النظام أو النسق اللغوي المثالي يحدث لونًا من « المفاجأة الأسلوبية » [1] التي يتعمدها منشئ الخطاب . وبالتالي فليس من المعقول أن ينكشف المعنى في الأسلوب العدولي لكل متأمل بصورة واحدة لا تتغير ؛ لأن من طبيعة التأمل أن تتنوع فيه زوايا النظر ، وأن يتنوع ما يبدو للمتأملين لاسيما أن تأمل العدول في حاجة من صاحبه الى خبرة واسعة لإدراك التوفيق بين الصيغ أو الأساليب ، وبخاصة في النص القرآني .

والأسلوب العدولي في النص القرآني قادر على أن يستثير العقول في مختلف العصور ، وهو في حالة إرسال مستمر ، برغم اختلاف الزمان والمكان والظروف .

وبذلك نستطيع أن نقول بأن « الأسلوب العدولي » ليس حيلة من حيل جذب اهتمام المتلقي وتشويقه فحسب ؛ لأن ما يحدث من انحراف للنسق ليس من قبيل التطرية والترويح عن المتلقي ، وإنما ينحصر الأمر في بيان معنى على قدر كبير من الرهافة والخفاء ، لا يلتفت إليه إلا متلق حاذق متمرس بأساليب اللغة وأنماط التعبير المختلفة ، قادر على قراءة الوجه الغائب للنص من خلال وجهه الحاضر . [2]

---

[1] يعرف جاكبسون المفاجأة الأسلوبية بأنها " تولد اللا منتظر من خلال المنتظر " ، انظر : الاسلوبية والأسلوب صـ ٨٦ ، ويُنظر : علم الأسلوب صـ ٢٣٦ ، وما بعدها

[2] جماليات الالتفات (مقال للدكتور عز الدين إسماعيل ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي – المجلد الآخر صـ ٩٠٤ ، ٩٠٥ -- بتصرف –)

القسم الثاني : التطبيق على المصطلح

أنمــاط العـدول في النص القرآني •

" فإذا كان الكلام كله صعبًا ، وتمييزه شديدًا ، والوقوع على اختلاف فنونه متعذرًا – وهذا في كلام الآدميّين – فما ظنك بكلام رب العالمين ؟ ! "

الإمام الباقلاني

تبين لنا مما سبق من عرض مفهوم المصطلح في التراث تعدد أنماط العدول وصوره عند العلماء (لغويين ونحويين ومفسرين وبلاغيين) ، وتبين لنا أن العدول قد يكون في البنية ، أو في الصيغة ، أو في الرتبة ، أو في العدد ، أو في الضمائر ، أو في زمن الفعل ، ومنه ما يتصل بتسخير اللفظ لتوليد المعنى ، ومنه ما يتصل بالتعريف والتنكير ، أو بالتذكير والتأنيث ، ومنه ما يكون لأجل الترخّص في الإعراب ، ومنه ما يكون للتغليب ، ومنه ما يتصل **بالتضام** الذي يشمل الزيادة والحذف والفصل النحوي ، ومنه ما يتصل بمراعاة المناسبة أو الفاصلة ، وغير ذلك .

ولما وجدت هذه الأنماط/ الصور كثيرة متنوعة قمت بتصنيفها حسب المجال الذي تنتمي إليه .

والذي يجب أن ننبه إليه قبل أن نعرض لهذه الأنماط أو الصور العدولية هو أن « العـدول » عن الأصل تولـّد ذاتي في اللغة ، يرتبط بتولـّد الأفكار وتشعّبها وتحاورها وتجادلها ، وأنه لا يُحكم بشرعية « العـدول » إلا إذا أضاف فضلاً ومزيّة ، فهناك عـدول عن الأصل في القواعد كالعـدول عن قاعدة "عدم الابتداء بالنكرة " عندما تتحقق الإفادة مع التنكير ، وكالعـدول عن عدم الإخبار بظرف الزمان عن أمر مادي عندما تتحقق الإفادة به أيضًا وهلمّ جرّا ، مما يدل

• نقصد بنمط العدول : « النسق » أو « الصورة » أو « النظم » الذي وردت عليه العبارة القرآنية مخالفا النسق المثالي – أي الأصل المثالي – للغة .

وقد عقد الدكتور تمام حسان فصلاً بعنوان : « الأسلوب العدولي أو المؤشرات الأسلوبية » في كتابه « البيان في روائع القرآن » صـ ٣٤٥ وما بعدها ، ذكر فيه بعض أنواع العـدول مشيرًا إلى الفائدة منها، وقد أفدنا من هذا في دراستنا هذه .

على أن **الإفادة هي المطلب الأول للعدول في الاستعمال اللغوي** .[1] وقد رأينا شيئًا من ذلك في الشواهد السابقة الذكر .

كما ننبه على أن أنماط العدول في القرآن وصوره تندّ عن الحصر ، وليس بوسع أي باحث أن يحصرها ، لأن النص القرآني بطبيعته لا يخضع لأي نوع من التقييد الصوري ، ولا يحتكم إلى أسلوب بعينه ، وإنما هو حدائق ذات بهجة من الأساليب التي لا تنتهي أعاجيبها ، والتي نعدُّ منها :

أولاً : العدول في البنية :

يُعدل عن أصل البنية إما بإجراء تصريفي ، أو بتسخير اللفظ لتوليد معان هامشية لم تكن للأصل اللغوي المجرد .

١) **الإجراء التصريفي** : من طبيعة الاستعمال اللغوي أن يعمد إلى طلب الخفة وتجافي الاستثقال اقتصادًا للجهد الحركي في النطق وتلك ظاهرة لا نعلم لغة بمنأى عنها ولقد حرصت اللغة العربية (أو بعبارة أخرى حرص الذوق العربي) على كراهية توالي المثلين والمتقاربين والمتعارضين وكان حفيًا بتوالي المختلفين والمتناسبين ، ومن هنا وجدنا إجراءات عدولية تصريفية تُتَّبع في صياغة البنية ، كالإدغام والإخفاء والإقلاب والنقل عن طريق التضمين ، أو عن طريق النيابة ، والإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف والزيادة والمناسبة علاجًا لمشاكل تجاور الأصوات الذي يتسم بالثقل .[2]

ومن الإجراء التصريفي « التضمين »[3] وهو أن يُضمّن لفظ معنى لفظ آخر كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (النساء ٢) فِعْلُ

---

١ البيان في روائع القرآن صـ ٣٤٦ ، ويُنظر : العدول صـ ٢٠

٢ البيان في روائع القرآن صـ ٣٤٧ ، ويُنظر تفصيل ذلك في : « الأصول » دراسة أبيستومولوجية صـ ١٣٦ ، وما بعدها ، واللغة العربية معناها ومبناها صـ ٢٦١ ، وما بعدها

٣ لفظ التضمين يعني معاني أخرى ، ففي الشعر : تعلق قافية بيت بالبيت الذي يليه ، وفي البديع : أن يأخذ الشاعر أو الناثر آية أو حديثا أو بيتًا أو شطرًا من بيت أو عبارة من كلام غيره دون أن يغير لفظًا منه أو معنى ، والتضمين في البيان : أن تعدّي الفعل بغير حرفه ، أما في النحو : فهو إشراب كلمة معنى كلمة لتقع موقعها وتتبوأ بيئتها في الكلام ، وتؤدي وظيفتها النحوية . (البيان في روائع القرآن صـ ١٩١) ويُنظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها صـ ٣٧١ ـ ٣٧٢ .

الأكل متعدٍّ بنفسه إلى مفعوله الواحد ، ولا يحتاج بعد ذلك أن يتعلق به " إلى " ولو جاز له أن يتعلق به الحرف لكان الحرف " من " نحو ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ (الأنعام ١٢١)

والمقصود بالنهي عن الأكل في آية النساء النهي عن « الضم » والمعروف أن الفعل «ضمّ» ينصب أحد المضمومين على المفعولية ، ويتعدى إلى المضموم الآخر بواسطة " إلى " ففي استعمال الأكل في الآية تضمين هذا الفعل معنى فعل « الضَّمِّ » أي « ولا تضمُّوا أموالهم إلى أموالكم » فوقع فِعل الأكل في البنية اللفظية لفِعل الضمّ وأدى معناه ، وهذا هو المقصود بالتضمين الذي هو صورة من صور النقل الأسلوبي ، واستعمل الأكل لما فيه من الشراهة بعكس مطلق الضم .[1]

٢) **تسخير اللفظ لتوليد المعنى**

إن طاقة اللفظ تتسع لما هو اكثر من مجرد المعنى العرفي الاجتماعي ، بأن تشمل تسخير هذا اللفظ لتوليد معان أخرى فنية أسلوبية ، ولكونها أسلوبية يمكن وصفها بأنها فردية أو شخصية ، أي ترجع إلى قدرة منشئ الخطاب/ المبدع في اختيار الألفاظ التي تحدث الأثر النفسي المناسب لدى المتلقي ، وتسخير اللفظ لتوليد المعنى نمط من أنماط العدول ، له طرق متعددة منها :

أ ــ **حكاية اللفظ للمعنى** ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ ﴾

(فاطر ٢٧) كان يمكن لهذا المعنى أن يوصل إليه بواسطة استعمال لفظ " صخور " ولكن حروف هذه الكلمة هي « صاد » رخوة، ثم «خاء» رخوة أيضًا ، ثم « راء » تكرارية ، وفي الرخاوة رخاوة ، وفي التكرار تخلخل ، أمّا لفظ « جُدَدٌ » فالشدة واقعة في جُل حروفه ، مما يوحي بالقوة التي تتناسب مع تركيب الجبال .[2]

---

١ البيان صـ ٣٤٩

٢ البيان صـ ٣٥٣

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ (الأحقاف ١٧)

تكاد كلمة « أُفٍّ » تنقلب بجرسها من **اسم فعل إلى اسم صوت** ، فإن ما في الفاء من طرد النفس من الصدر حكاية للرفض وإرادة التخلص من موقفه وصاحبه ، ولو أن الرافض بَحَثَ عن تعبير مناسب للرفض ما وجد أفضل من لفظ « أف » بسبب ما فيها من دلالة طبيعية تدعم دلالتها العرفية ... فهي تدل بجرسها على ما تدل عليه بوضعها .[1]

وهكذا ترقى القيمة الصوتية إلى حكاية معنى عرفي رصده المعجم للفظ أو معنى طبيعي مما تستوحيه النفس ولا تستطيع وصفه ، فإن أمكن أحيانًا أن نشير إليه من بُعد فإننا لا نستطيع تفسير العلة التي جعلته موحيًا على هذا النحو ، فَمَثَلُ التأثر به كمثل التأثر باللحن الموسيقي نطرب له ولا ندري لماذا ، ولعلنا نجد جوابًا لذلك عند الرافعي أن ذلك هو « الاستهواء الصوتي في اللغة » .[2]

ومما يتصل بإيحاء اللفظ إيحاء من نوع آخر لا يعود إلى أصوات الكلمة ، وإنما يعوّد إلى الدلالات الهامشية للألفاظ فمن ذلك مثلاً ، سأل زكريا ربه : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ (آل عمران ٤٠) ، وسألت مريم ربها : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ ﴾ (آل عمران ٤٧) فأجاب الله زكريا بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران ٤٠) ، وأجاب مريم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران٤٠)

بداية لابد أن نفهم الفرق اللغوي بين « يخلق » و « يفعل » حيث يُفهم من الأول معنى التقدير والإنشاء من عدم ، أما الثاني ففيه تصيِير شيء من شيء موجود أصلاً ، أو نقله من حال إلى حال .

وبناءً على هذا الفهم نرى أن التعبير بلفظ « يفعل » في قول زكريا لا يثير خواطر سيئة ، لأن زكريا وامرأته زوجان فلا شبهة

---

١ البيان صـ ٣٥٥ ، وراجع : تأويل مشكل القرآن صـ ١٤٧ ، ١٤٨
٢ تاريخ آداب العرب ٢/٢١٥ – ٢١٧

إن حملت المرأة ، لأن زوجها بجانبها وقد كان إخصابها بواسطة تسخير زوجها لذلك ، والتسخير والإخصاب من فعل الله . أما في حالة مريم فإن التعبير بلفظ « يفعل » ربما أثار خواطر سيئة فاللفظ لهذا غير مناسب ، ومن هنا جاء الفعل « يخلق » ليوحي بطلاقة القدرة وهيمنة الإرادة والمشيئة الإلهية .[1]

ولعلنا نلتفت إلى عدول آخر في السؤالين حيث كان « غلام » في سؤال زكريا ، وكان « ولد » في سؤال مريم ، وذلك أن الغلام ابن لأبيه ، والولد من الولادة ، والولادة من خصوصيات المرأة . وهذا هو ما كان يشغل مريم ، كيف تلد بدون زوج ؟ !

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ (سورة ص ٢١) الذي فعله المتخاصمون المحتكمون إلى داوود عليه السلام هو أنهم تسلقوا السور ، والصيغة الصرفية في «تَسَلَّقوا» هي « تَفَعَّلوا » والأصول الاشتقاقية في « السور » هي « س و ر » وقد ضمت الآية الصيغة إلى الأول الثلاثة فكان نتيجة ذلك لفظ « تسَوَّروا » الذي هو أخصر من كلمتين وأجمع للدلالة على المعنى وأكثر حكاية له .[2]

ب – **العدول إلى تنكير اللفظ أو تعريفه** ، وذلك للوصول إلى إفهام التعميم وما يتولد عنه من إيهام أو تهويل أو تحقير أو تعظيم بحسب موقع الكلمة من سياقها اللغوي والاجتماعي.

فمن شواهد **إيثار التنكير** قوله تعالى : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ (غافر ٢٨) نكَّر الرجل والمقصود موسى عليه السلام ليحول القضية من قضية شخص بعينه إلى قضية عامة من قضايا منطق العدالة.[3]

---

١ البيان في روائع القرآن صـ ٢٩٧ (بتصرف)
٢ البيان في روائع القرآن صـ ٣٥٤
٣ البيـان صـ ٣٥٧

ومـنه قـوله تعالـى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ (الحشر ١٨) دليل إرادة العموم هو أنك لو وضعت لفظ " كل " قبل كلمـة " نفس " لظل هيكل المعنى وإطاره العام كما هو ، ومعنى هذا أن التنكير أغنى عن لفظ " كل " بما أفاده التنكير من معنى العموم ، ففي الآية أمرٌ من الله سبحانه وتعالى للذين آمنوا جميعًا أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا .[١]

قال الزمخشري : " فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير النفس فاستقلال للأنفس النواظر فيما قدمنا للآخرة ، كأنه قال : فلتنظر نفس واحدة في ذاك ، وأما تنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا يُعرف كُنهه لعظمه " .[٢]

ومن شواهد **إيثار التعريف** قوله تعالى : ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ ﴾ (العنكبوت ١٧) والسبب في هذا الإيثار والعدول أن تعريف الرزق هنا أفاد أنه لا رازق إلا الله ، لإفادة " أل " معنى استغراق الجنس ، وما كان يمكن الوصول إلى هذا القصر في المعنى لو أن الرزق قد جاء على صورة النكرة ، فلو قيل : « فابتغوا عند الله رزقا » ما كان هذا القول حائلاً دون فهم التعدد لمصادر الرزق .[٣]

ومـنه قـوله تعالـى : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ (الشورى ٤٩) جاءت الإناث نكرة والذكور معرفة من أجل الفاصلة ، ولو نكّر فقيل : « ويهب لمن يشاء ذكورًا » لتغير جرس الفاصلة ، واختلفت عما قبلها من قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ

---

١ البيان صـ ٣٥٧ ، ٣٥٨
٢ الكشاف ٨٦/٤
٣ البيان صـ ٣٥٨ ، وراجع : الكشاف ٢٠١/٣

كَفُورٌ ﴾ (الشورى ٤٨) ، ولكن لا يكفي في تعريف « الذكور » القول بمراعاة الفاصلة ولكن لابد من بيان دور المعنى الذي كان سببًا أسلوبيًّا في العدول ، " فالآية سيقت للاعتداد بالنعم ، وإنما أتى بذكر الحرمان ليتكمّل التمدّح بالقدرة كما يُمدح بالهبة وبالعطاء ، فيُعلم أنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وقال سبحانه مُخبرًا عن الحرمان بلفظ : " **ويجعل** " عدولاً عن لفظ الحرمان والمنع إلى لفظ هو ردفه وتابعه ، وهو لفظ الجَعْل ... فأخبر سبحانه أنه الفاعل لذلك كله على الحقيقة " .[1]

وللألوسي رأي في هذا الصدد نميل إليه لاتصاله بالمعنى فضلاً عن المبنى حيث يقول : " ... وفي تعريف الذكور ، التنبيه على أنه المعروف الحاضر في قلوبهم أو كل خاطر ، وأنه الذي عقدوا عليه منامهم " [2] ، فبناءً على هذا الرأي يكون سر تنكير الإناث هو الإشعار بتجاهل العرب وكراهيتهم لهذا الجنس ، فكأن الآية الكريمة تقرر لهؤلاء – من خلال ظاهرة التعريف بعد التنكير – أن الجنس الذي هو معقد آمالكم في أن كلا منهما هو عطاء مالك السموات والأرض الذي يهب ما يشاء لمن يشاء .

ج – العدول إلى الوصف بالموصول [3] استغناءً عن تعيين الذات ، ووفاءً بإرادة العزوف عن تحديد مدلوله لفرض أسلوب معين كـ**التحقير** - مثلاً - كما في قوله تعالى - مشيرًا إلى امرأة العزيز -:
﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ (يوسف ٢٣) فلا هي « زليخا » ولا هي « امرأة العزيز » ولا هي « سيدته » وإنما هي تلك التي تقيم معه في بيت واحد هو بيتها . وفي إضافة البيت إليها لا إلى زوجها من الإشارات المهينة ما لا يخفى .[4]

---

١ بديع القرآن صـ ٦٨ ، ٦٩

٢ روح المعاني ٥٤/٢٥ ، وراجع الكشاف ٤٧٥/٣

٣ الموصول يأتيه العموم من بين يديه ومن خلفه لأن دلالته في الأصل إنما هي على مطلق غائب (وبين الإطلاق والتعميم رحم وقربى) ولأنه مفتقد إلى صلة تمنح معناه شيئًا من التحديد (والافتقار في اللفظ دليل على فقر في الدلالة) والدليل على عموم معناه أيضًا أن ينقل فيكون من روابط الجملة . (البيان في روائع القرآن صـ ٣٦٥)

٤ البيان صـ ٣٦٥

وأحسب أن تجنب التعبير القرآني لفظ «سيدته» تكريمًا ليوسف وتحقيرًا لها ، بدليل الآية الأخرى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ﴾ (يوسف ٢١) فليس هو سيدًا ليوسف ، وليست هي سيدة له . ومما يدل على تجنب النص الشريف لفظ السيادة في حالة يوسف بذاته قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ (يوسف ٢٥) فجعله سيدها ، لا سيد يوسف عليه السلام .

وقد يُساق الموصول مساق **التعظيم** بسبب ما يحتمله التعميم من التهويل والتضخيم والتكريم كما في قوله تعالى : ﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ (الرعد ١) أي : «والقرآن هو الحق» .[1]

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ ﴾ (الرعد ٣) أي : وهو الله .[2]

ثانيًا : العدول في الصيغة :

من بلاغة العدول المغايرة في الصيغة بمعنى العدول إلى صيغة معينة في سياق معين وإيثارها على غيرها في هذا الموضع .

ومن شواهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت ٦٤) فالحياة والحيوان بمعنى واحد ؛ إذ إن كلا منهما هي مصدر للفعل «حيّ» غير أن في الثانية من المبالغة في أداء هذا المعنى ما ليس في الأولى ، ومرد ذلك – كما يقرر بعض المفسرين – هو " ما في بناء فعلان – بفتح العين – من معنى

---

١ البيان صـ ٣٦٥
٢ البيان صـ ٣٦٦

الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك ، والحياة حركة كما أن الموت سكون ؛ فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ، ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضي للمبالغة " .[١]

إذن في العدول إلى صيغة الحيوان مع الدار الآخرة مبالغة في تحقق معنى الحياة في تلك الدار ، والإشعار بأنها هي الجديرة بأن تسمى حياة .

ولكن أمورًا أخرى من المعاني حفلت بها الآية الكريمة تدعم هذا العدول، وتعمق دلالته على سمو الحياة الأخروية بالقياس إلى الحياة الأولى ، فمنها :

أ- بينما بولغ في استعمال معاني اللهو واللعب للحياة الأولى بأسلوب القصر « ما – إلا » بولغ في المقابل في إثبات معنى الحياة للدار الآخرة بإن واللام وتعريف طرفي جملة الخبر " لهي الحيوان" .

ب- بينما وردت صيغة « الحياة » مقيدة بالوصف " الدنيا " وردت صيغة "الحيوان" مطلقة بلا وصف ، وذلك للإشعار بأن الحياة الأخروية في تساميها أبعد من أن يحيط بها وصف .

ج- بينما وقعت صيغة « الحياة » مبتدأ أخبر عنه باللهو واللعب ، وقعت صيغة « الحيوان » في جملة الإخبار عن الدار الآخرة ، فكأن هذه الدار ليست مجرد وعاء أو مسرح للحياة الأخروية بل إنها ذاتها حياة .[٢]

ومن شواهد **العدول في الصيغة** أيضًا ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء ١٤٢) .

حيث جاء العدول عن صيغة المضارع " يخادعون " إلى صيغة اسم الفاعل " خادعهم " مؤديًا دوره في تبكيت هؤلاء المنافقين الذين تسول لهم نفوسهم الملتاثة بمرض النفاق أن ظاهرهم الإيماني الزائف قد آتى ثماره في خداع المؤمنين، وأن كفرهم في مأمن من الافتضاح ، غافلين عن أن الخالق عز

---

١ الكشاف ١٩٥/٣ ، وانظر : تفسير أبي السعود ٤٧/٧

٢ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية صـ ٨٧ ، ٨٨

وجل عليم ببواطنهم، وأنه سبحانه إذا كان قد أمر المؤمنين بعصمة دمائهم ، فإنه بذلك يملي لهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون .

ولعلنا نلاحظ أن العـدول عن صيغة المضارع إلى صيغة اسم الفاعل قد واكبه – متآزرًا معه في دلالته – عـدول آخر يتمثل في صياغة اسم الفاعل من الثلاثي (خَدَعَ) لا من الرباعي الدال على المفاعلة والذي يقتضيه ظاهر السياق لمجيء المضارع منه (خادَع) بفتح الدال وفي هذا دلالة على أن هؤلاء المنافقين الذين يمنعون في محاولات الخداع ، هم – لو عقلوا – المخدوعون ، أي أن الآية الكريمة بهذا العـدول الأخير تدل على ذلك المعنى الذي أكدته آية أخرى في شأن هؤلاء المنافقين [1] ، وهي قوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة ٩) .

ومما يتصل بالعدول في الصيغة إيثار بعض أوصاف المبالغة على بعض ، نحو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (سورة ص ٥) يرى بعض المفسرين أن الوصف « عُجاب » عُدل إليه وأوثر على « عجيب » لأجل الفاصلة. [2] ونقول : هب أنهم محقون في ذلك ، لكن ليس من الإنصاف للبيان الأعلى والكلام المعجز أن يلتفت إلى النسق اللفظي دون الالتفات إلى الملحظ البياني الذي يقتضيه المعنى وحينما نستعرض السياق الذي وردت فيه الآية الكريمة ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ (سورة ص ٤ ، ٥) .

فالكافرون ألِفوا تعدد الآلهة وحياة الهمجية ، فلما جاءهم محمد ﷺ يدعوهم إلى عبادة إله واحد أحد وترك عبادة الأصنام التي ألفوها ووجدوا آباءهم يعبدونها ، فكان هذا بالنسبة لهم شيئا عجيبًا اشد العجب، بل شيئا بليغا في العجب " أي مبالغة في العجب ، فإن « فُعالاً » بناء مبالغة ، كرجل طُوال وسُراع . ووجه تعجبهم أنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم الذين أجمعوا على تعدد

---

١ راجع : أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية صـ ١٠٧

٢ الإتقان ٣/ ٣٤٣ ، ومعترك الأقران ٣٧/١

الآلهة ، وواظبوا على عبادتها ، وقد كان مدارهم في كل ما يأتون ويذرون التقليد ، فيعدون خلاف ما اعتادوه عجبًا بل محالاً[1] .

قال صاحب « العين » : " بين العَجيب والعُجاب فرق ، أما العجيب : فالعجب يكون مثله ، وأما العجاب : فالذي تجاوز حد العجب و استدل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾[2] .

جاء في « البرهان » قول **المعري** في « اللامع العزيزي »[3] " فعيل " إذا أريد به المبالغة نقل به إلي " فُعَال " وإذا أريد به الزيادة شددوا فقالوا : "فُعّال" ذلك من عجيب وعُجاب وعُجَّاب ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : " إن هذا لشيء **عُجَّـــاب** " بالتشديد[4] .

جاء في سورة « **ق** » قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ (سورة ق ٢) فمناط العجب هنا كون الرسول منهم ، وكونه بشرا مثلهم ، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وقد كانوا يظنون أن يكون الرسول ملكا .

وجاء في سورة « ص » قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (سورة ص ٥) عــدول من صيغة « فعيل » إلى صيغة « فُعَال » للدلالة على شدة **التعجب** ؛ لأن الرسول ﷺ أتاهم بغير ما ألفوه واعتادوه ، فكانت نسبة العجب أشدّ .

وجاء في سورة " نوح " ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ (نوح ٢٢) في "كُبَّـارا" بالتشديد « فُعَّـال » عدل إليها لإفادة شدة المكر .

---

١ معترك الأقران ٣٧/١ ، والإتقان ٣٤٣/٣

٢ روح المعاني ١٦٦/٢٣ ، ويُنظر الكشاف ٣٦٠/٤ ، والتفسير الكبير ١٥٥/٢٦

٣ اللامع العزيزي كتاب لأبي العلاء المعري في شرح غريب شرح أبي الطيب المتنبي ، عمل الأمير معز الدولة ثابت بن الأمير معز الدولة أبي العوان (إنباه الرواة ٦٥/١)

٤ البرهان ٥١٣/٢ ، ٥١٤

قال **الراغب** : " والكُبَار " أبلغ من " الكبير " و" الكُبَّـار" أبلغ من ذلك.[1]

واستدل بقوله تعالي : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾ وبمثل ذلك قال الزمخشري .[2]

إذا فليس العـدول عن صيغة إلى أخرى – في البيان المعجز – سببه مراعاة الفاصلة فحسب وإنما حسبما يتطلب المعنى من الدلالة على العجب ودرجة شدته .

ومن أنماط العدول في الصيغة ، **وقوع « مفعول » موقع « فاعل »** . نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ (الإسراء ٤٥) أي ساترًا ، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم ٦١) أي آتيا .

جاءت آية الإسراء في سياق آيات روى فواصلها راء مسبوقة بحرف "مد" والحجاب يكون ساترًا لا مستورًا ، فكان أن يقال " ساترًا " وهذا ما جعل بعض المفسرين يرى أن وقوع « مفعول » موقع « فاعل » من أجل مراعاة رءوس الآي . وهذا ملحظ شكلي ، وإنما الداعي إلى ذلك هو المبالغة في قوة المعنى وتأكيده ، وأن الحجاب الذي جُـعل بين الكافرين وبين الرسول ﷺ وما يتلوه من آيات بينات – لعدم انتفاعهم بها وشدة نفورهم عنها – كاد يكون لقوة ستره مستورا . أي أن أثره تعدَّى موضعه حتى شمل الحجاب نفسه ، ففي التعبير تخييل على حد قول الشاعر :

*** لكن لشعري فيك من نفسه آيات شعر ***

ففي العبارة مجاز عقلي [1]، وكذلك يقال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴾ (مريم ٦١) ففي هذا العـدول مبالغة في قوه المعنى وتأكيده أن وعد الله آتٍ لا محالة .

---

١ مفردات الراغب صـ ٤٢٣
٢ الكشاف ١٦٤/٤

ومن أنماط العدول في الصيغة أيضًا ، وقوع « **فاعل** » موقع «**مفعول**» ، نحو ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ (الحاقة ٢١) ، و ﴿من ماء دافق ﴾ (الطارق٦) .

قال **أبو عبيدة** : "عيشة راضية" مجاز مرضية ، فخرج مخرج لفظ صفتها ، والعرب تفعل ذلك إذا كان من السبب في شئ ، يقال : نام ليله ، وإنما ينام هو فيه .[٢]

وقال **الشريف الرضي** : " وكان الوجه أن يقال : في عيشة مرضية ، ولكن المعنى خرج على مخرج قولهم « شعرٌ شاعر » ، «وليلٌ ساهر » ... وقال بعضهم : إنما قال تعالى : ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ لأنها في معنى ذات رضا ، كما قالوا لذى الدّرْع دَارع ، ولذي النّبل نابل ، ولصاحب الفرس فارس ، وإنما جاءوا به على النسب ولم يجيئوا به على الفعل ... فكأن العيشة أعطيت من النعيم حتى رضيت فحسن أن يقال راضية ، لأنه بمنزلة الطالب للرضا ... " .[٣]
وهذا من تصريف القرآن للقول بحسب المقام .

إذن ليس هناك معيارية يُحكم بها على الصيغة في حالة من حالاتها دون أخرى بأنها أفضل من غيرها ، إلا بقدر ما توحي أو تلفت إلى المعنى المقصود في هذا السياق أو غيره ، فالهدف ليس في معيارية ولكن في وظيفة الأداء اللغوية القادرة على توصيل المعنى أو الإيحاء به .

ثالثًا : العدول في الرتبة : (التقديم والتأخير)

يعدّ التقديم مظهرًا من مظاهر كثيرة تمثّل قدرات إبانة أو طاقات تعبيرية يديرها المتكلم اللّـقِـن إدارة حية وواعية ، فيسخرها تسخيرا منضبطا للبوح بأفكاره وألوان أحاسيسه، ومختلف خواطره، ومواقع الكلمات من الجملة عظيمة المرونة كما هي شديدة الحساسية ، وأي تغيير فيها يحدث تغييرات جوهرية في تشكيل المعاني ، وألوان الحس ، وظلال النفس ، فليس قولك : **زيد جاءني** ، كقولك : **جاءني زيد**. فقولك : **زيد جاءني** ، أفاد فوق الإخبار بالمجيء ضربًا من الاهتمام بزيد ، والحفاوة بأمره، وتوكيد تلك الحقيقة لسامعك لأهميتها ، أو لأنه علي حال لا يتوقع مجيء زيد ، وما شبه ذلك من تلك الألوان النفسية التي يبوح بها تقديم المسند إليه . فإذا قلت : **جاءني زيد** ، انقطع هذا الفيض من الهواجس والخواطر

---

١ خصائص التعبير القرآني ٢١٧/١ ، ٢١٨
٢ مجاز القرآن ٢٦٨/٢
٣ تلخيص البيان صـ ٣٣٠

وكان الكلام كلاما مرسلا ، يجري في سياق خال من تلك النبضات التي جرى فيها السياق الأول .[1]

وبناء العبارة في الحقيقة بناء خواطر ومشاعر واختلاجات قبل أن يكون هندسة ألفاظ وتصميم قوالب ، وإذا كان السياق سياقا فياضا وحافلا أبدت هذه الزحزحات الخفيفة للكلمات - أي العدول - غِنيً وفيضًا.

ولعل هذا ما التفت إليه عبد القاهر حين قال في صدر حديثه في هذا الباب : " إنه جم المحاسن ، وواسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلي لطيفة ، ولا تزال تري شعرًا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قُدِّم فيه شئٌ وحُوِّل اللفظ عن مكانٍ إلى مكان " .[2]

وشواهد العدول في التقديم - في القرآن الكريم - كثيرة ، تندُّ عن الحصر ، وتتعدد أنماطه ، نعد منها في هذا المقام ، **تقديم المعمول على العامل،** نحو قوله تعالى : ﴿ أَهَٰؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴾ (سبأ ٤٠) الخطاب للملائكة وهو تقريع للكفار ... وفيه إقناط للمشركين عمّا علقوا به أطماعهم الفارغة من شفاعتهم ، وتخصّص الملائكة لأنهم أشرف شركائهم والصالحون للخطاب منهم . إذن فتقديم المعمول " إياكم " على العامل " يعبدون " اقتضاه المعنى كما يُفهم من السياق ، هذا فضلاً عن مراعاة المناسبة .[3]

ومن أنماطه **تقدم المفعول لأجله** ، وهو الآخِرُ رتبةً ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَئِفۡكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصافات ٨٦) الآية كما نعلم استفهام إنكاري ، وما دام معناها الإنكار ، فإن ترتيب ألفاظها ينبغي أن يكون بحسب الأولية في استحقاق الإنكار . وأولى الألفاظ بالإنكار هنا لفظ « إفكًا » لأن الكفر قد يكون ميراثًا عن الآباء ، ولكنه قد يكون انحرافًا عن الحق متعمدًا لا ينفع معه الدليل على فساده فذلك هو « الإفك » ثم يلي في الإنكار أن ينصب الإفك على إشراك آلهة مع الله ، فإذا كانت الآلهة دون الله لا معه فهذا أوغل في الشرك ، ويُضاعف من سوء ذلك أن يكون ذلك بإرادتهم وباختيارهم ، ولو تصورنا النظم في غير القرآن « أتريدون آلهة دون الله إفكًا » لانطفأ كل ما

---

١ دلالات التراكيب صـ ١٧٠
٢ دلائل الإعجاز صـ ٧٣
٣ تفسير أبي السعود ١٣٦/٧ ، ١٣٧

في الكلام من حرارة الإنكار ، ولبدى الكلام وكأنه سؤال لهم عما يفضلونه من أنواع الشرك . وثمة ملحظ آخر أن المفعول لأجله « إفكًا » تقدّم وهو الآخر رتبة وتلاه المفعول به ونعته وهذا يدل على أن أول ما تعلق به الاهتمام هو السببية التي عبّر عنها المفعول لأجله ؛ لأن الكفر عن ضلال قد ترجى له الهداية ، أما الكفر عن إفك فذلك انحراف مع تدبير وكيد وإصرار .[١]

ومن أنماطه أيضًا **تقديم الضمير على ما يفسره** ، نحو قوله تعالى : ﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ** ﴾ (طه ٦٧) والنكتة في هذا التقديم والتأخير أن النفس تتشوّف لفاعل « أوجس » فإذا جاء بعد أن أخّر وقع من النفس بموقع .[٢]

وهذا التعليل يغلب عليه طابع العموم ، والحق أن موسى مؤيد من ربه فهو – سبحانه – معه يسمع ويرى ، ولما كان توجس الخوف يشعر بدنو منزلة موسى –عليه السلام – في هذا الموقف ، أشعر النظم الكريم بأن ذلك ينبغي أن يكون بعيدا عنه ، لذلك أعقبه بقوله : ﴿ **قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ** ﴾ (طه ٦٨) والأعلى لا ينبغي أن يخاف ظاهرا ولا باطنا، وتقديم الجار والمجرور (**في نفسه**) على المفعول (خيفة) لبيان أن كانت في نفسه ولم تكن ظاهرة ، وإن كان لفظ " **أوجس** " يوحي بكون الخوف في نفسه ، لكن النظم الكريم حرص على التصريح به ليؤكد المعنى ، ولا يظهر موسى في مقام الخائف ، لاسيما في هذا الموقف أمام أعدائه .

ومنه **تقديم ما هو متأخر في الزمان** ، نحو قوله تعالى : ﴿ **فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ** ﴾ (النجم ٢٥) قال ابن الصائغ : " ولولا مراعاة الفاصلة لقدّمت «الأولى» كقوله : ﴿ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ (القصص ٧٠) " .[٣] والحق أن هذا ملحظ شكليَ ولابد أن هناك ملحظًا بيانيًا يتطلبه المعنى ويُستنبط من السياق . فعندما ننظر إلى الآيات المصاحبة للآية حتى يساعدنا السياق على فهم المعنى

---

١ البيان صـ ٣٧٩ ، وانظر شاهدًا آخر على التقديم : دلائل الإعجاز صـ ٢٨٦ ، ٢٨٧ حيث تعرض عبد القاهر لبيان الفائدة من التقديم في لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ (الأنعام ١٠٠) .

٢ البرهان ٦٢/١

٣ الإتقان ٣٣٩/٣ ، ومعترك الأقران ٣٢/١

الصحيح فالسياق كما يقولون الحارس الأمين على المعنى قال تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ (النجم ٢٢ – ٢٦) .

" **أم للإنسان ما تمنى** " أم منقطعة مقدرة بـ " بل " وهي للانتقال من بيان أن ما هم عليه غير مستند إلا إلى توهمهم ، وهوى أنفسهم إلى بيان أن ذلك لا يجدي نفعًا لهم في الآخرة ، فليست لهذه الأصنام شفاعة عند الله ، والهمزة للإنكار والنفي ، أي بل ليس للإنسان كل ما يتمناه ... وفي تقديم الآخرة تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان كل ما يتمناه حتمًا ، فإن اختصاص ملك أمور الآخرة والأولى به تعالى مقتضٍ لانتفاء أن يكون للإنسان أمر ما ، وقدمت الآخرة لقطع أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها ، لذا أردف ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة، موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق أولى ، "وكم" خبرية مفيدة للتكثير... وجمع الضمير في شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى وتقديم الجار والمجرور على المبتدأ في قوله ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ يفيد القصر بأن الأمور تسير وفق إرادة الله تعالى، لا وفق ما يتمناه الإنسان .[١]

وإذا كان ما يتمناه هؤلاء من شفاعة الأصنام لهم ـ وهذا لا يكون إلا في الآخرة وعند الحساب ـ مستحيلة لأن أحدًا لا يملك الشفاعة إلا من أذن له الله بها، لذلك قدمت الآخرة على الأولى في هذا الموضع . إذن فتقديم الآخرة على الأولى في هذا الموضع هو الأنسب والذي يقتضيه السياق ولأنه ينسجم لفظيًا مع الإيقاع الموسيقى للفاصلة فضلاً عن انسجامه المعنوي .

---

١ تفسير أبي السعود ١٥٨/٨ ، ١٥٩ الألوسي ٥٨/٢٧ ، ٥٩

معنى ذلك أن التقديم وهو أسلوب عدولي عن أصل الرتبة ومؤشر أسلوبي ، إنما يكون لغايات تتصل بالمعنى وذلك شأن الأسلوب العدولي مع كل القرائن .

رابعًا : العدول في الضمائر :

سبق أن تناولنا الحديث عن العدول في الضمائر من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة .

ومن العدول في الضمائر **المغايرة بين التكلم والغيبة** ، أو بين **الغيبة والتكلم** ، أو بين **التكلم والخطاب** .

فمن **العدول عن التكلم إلى الغيبة** ، قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنبياء ٣١ – ٣٣) .

بداية نود أن نلاحظ أن العدول عن التكلم إلى الغيبة في الآية الثالثة قد واكبه وتآزر معه - كما سنرى - عدول معجمي يتمثل في إيثار الفعل " خَلَقَ " في تلك الآية دون الفعل "**جعل** " الذي ورد ثلاث مرات في الآيتين الأولتين .

لقد ذكر المفسرون أن الفرق بين « الخلق » و « الجعل » هو أن الأول يتضمن معنى التقدير والإبداع من عدم . أما الثاني ففيه معنى التضمين كإنشاء شئ من شئ موجود أصلا ، أو تصيير شيء من شيء ، أو نقله من حال إلى حال .[١]

وثَمَّ فارق آخر بين الجعل والخلق يتجلى بوضوح في السياقات القرآنية التي تدور حول اللفت إلى مشاهدة الكون وآياته ، إثباتا لقدرة الخالق عز وجل .

---

١ انظر مفردات الراغب صـ ٩٤ - ١٥٧ ، وبصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٨٤، ٥٥٦ ، والكشاف ٢/ ٥٧١ ، وتفسير أبي السعود ١٠٤/٣ ، ١٠٥ . فالجعل على أساس هذا الفارق الذي ذكره المفسرون هو خطوة تالية للخلق مترتبة عليه ، وهذا ما يتجلى بوضوح في قوله عز وجل :

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ... ﴾ (النحل ٨١) .

ولو تأملنا هذه السياقات تبين لنا أن هذه المشاهد والآيات حين ترد مع الفعل " جعل " فإن الجانب المحسوس أو الشكل الماثل فيها يكون هو موطن اللفت ومناط الاعتبار ، أما عند ورودها مع الفعل " خلق " فإن اللفت لا يكون إلى هذا الجانب المحسوس بل إلى ما وراء تكوينه من لطيف الحكمة وخفي التدبير .

ففي الآيتين الأوليين من آيات سورة الأنبياء كان اللفت – مع فعل الجعل – إلى الهيئات المحسوسة التي نعاينها في شموخ الجبال ، وتمهيد الفجاج ونطالعها في ارتفاع السماء كالسقف المحفوظ بغير عمد ، أما في الآية الثالثة – حيث العدول إلى فعل الخلق – فلم يكن اللفت إلى الجانب المحسوس أو المشاهد من الليل والنهار والشمس والقمر أعني جانب الظلمة والنور – بل إلى القدرة الخفية التي بها يتعاقب الليل والنهار ، وتدور الشمس والقمر .

لقد ورد الفعل " جعل " متعلقا بالليل والنهار والشمس والقمر في سياقات أخرى متعددة في القرآن الكريم ، وبتأمل هذه السياقات يتبين لنا أن المظهر المحسوس في تلك الظواهر الكونية هو مثار اللفت وموطن العبرة .[1]

نستطيع القول – إذن – : إن العدول عن فعل « الجعل » إلى فعل «الخلق» في آيات الأنبياء يرجع إلى اللفت إلى الشكل المحسوس الذي بيده الحس المستبصر في الآيتين الأوليين ، واللفت إلى ما يكمن خلف هذا الشكل من حكم وأسرار في الآية الثالثة ، وبناء على ذلك نستطيع القول بأن نكتة العدول عن ضمير التكلم في "جعلنا " إلى ضمير الغيبة في " خلق " هي ملائمة طرق التكلم – وهو قرين الحضور والمشاهدة – لحسية الاستدلال على عظمة الخالق في الآيتين الأوليين ، وملاءمة طريق الغيبة – وهو قرين التواري والخفاء – لعقلانية هذا الاستدلال في الآية الثالثة ، وبهذه الملاءمة وتلك التي تؤدي المخالفة بين الضميرين دورها في هذا السياق الذي يلفت الأبصار ويستثير البصائر والعقول إلى تأمل تلكم المشاهد الكونية الدالة على قدرته سبحانه وأنه هو الظاهر الباطن .

---

١ انظر – على سبيل المثال – قوله تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ (يونس ٥) ، أو قوله : ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (نوح ١٦) ، أو قوله : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ (الفرقان ٦١) .

ونَـوَدُّ أن نبادر بالإشارة إلى أن هذا الذي نلاحظه في آيات الأنبياء من ارتداد المخالفة بين (ضميري الخطاب والغيبة) إلى المخالفة بين (المشاهد الجليّة المحسوسة والخفية غير المحسوسة) يقدم فيما نحس – والله أعلم – تفسيرا يكاد يكون مطردا للعدول عن كل شئ منهما إلى الآخر في غير هذا الموطن : لنتأمل على سبيل المثال – قول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ (فاطر ٩) حيث أسند فعل الإرسال إلى ضمير الغيبة ، ثم عدل[1] عن ذلك إلى ضمير التكلم عند إسناد فعلي السوق والإحياء .

يقول الزمخشري : ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها من الدلائل على القدرة الباهرة ، قيل : فسقنا ، وأحيينا ، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليها[2] (أي تقدير الأرزاق التي لا يتولاها إلا الله) ، فناسب ذلك أن ينتقل الإسناد إلى ضمير ذي الجلالة ، فهو الذي يسوق السحاب ، ويقسّم الأرزاق ، وينشر رحمته على عباده ، ولا يدع شيئًا من ذلك لأحد من خلقه .

هذا والذي نطمئن إليه في تفسير هذا العدول هو ما نلاحظه من المغايرة بين المحسوس وغير المحسوس من الأحداث أو الظواهر ، فنحن لا نرى فعل إرسال الرياح ولا نرى كيف تثير الرياح السحب ، وإنما نرى السحب ذاتها مسوقة ، والأرض حية تكسوها الخضرة وتزينها بعد أن كانت مواتا جامدة ، ومن ثم كان التعبير عن الإرسال بطريق الغيبة ، وعن السوق والإحياء بطريق التكلم أو الحضور .

خامسًا : العـدول في زمن الفعل

سبق أن تناولنا الحديث عن العدول في زمن الفعل في قسم التنظير ، فلا داعي للتكرار .[3]

---

١ يلاحظ أن في الآية الكريمة عدولا آخر في مجال الصيغ ، حيث بدأت بصيغة الماضي في "أرسل" ثم عدل عنها إلى صيغة المضارع " فتثير " ، ثم عاد إلى صيغة الماضي مرة أخرى (فسقنا – فأحيينا).
٢ الكشاف ٣٠٢/٣
٣ راجع صـ ٣٦من هذا البحث

سادسًا : العـدول في العدد :

ومن ذلك **المغايرة بين الإفراد والجمع** ، أو **بين الإفراد والتثنية** ، أو **بين التثنية والجمع** .

ومن شواهد **العدول عن الجمع إلى الإفراد** ، قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ (مريم ٨١ – ٨٢) ففي الآية الثانية جاء اسم يكون – العائد على الآلهة – ضمير جمع - ثم جاء الخبر عنه مفردًا " ضدًّا " ، عدولاً عن « أضدادًا » التي يقتضيها ظاهر السياق وهو عدول يحقق في الآية الكريمة فائدتين : **الأولى** هي الدلالة على (توحد) موقف الآلهة يوم القيامة في معاداة هؤلاء الكفار الذين عبدوهم من دون الخالق أو أشركوهم في عبادته عز وجل ، فتوحيد الضد هو – كما ذكر المفسرون – لتوحيد المعنى الذي تدور عليه مضادة هؤلاء الآلهة للكفار ، إذ إنهم يتفقون على هذه المضادة فيكونون كالشيء الواحد .[1]

يقول الزمخشري : " فإن قلت : لم وحّد ؟ قلت : وحّد توحيد قوله عليه الصلاة والسلام : « وهم يد على من سواهم » لاتفاق كلمتهم ، وأنهم كشيء واحد لفرط تضامهم وتوافقهم " .[2]

والثانية : اطراد الإيقاع الموسيقي بين فواصل الآيات ؛ إذ بصيغة الإفراد " ضدًّا " تتوازى فاصلة الآية الكريمة مع فواصل الآيات السابقة عليها واللاحقة لها في السورة (مدا . فردا . عزّا . ضدّا. أزّا . عدّا ... الخ) .

ونلحظ أن في العدول عن الجمع إلى الإفراد ، إبراز للمفارقة بين موقف الكفار من آلهتهم في الدنيا ، وموقفها منهم يوم القيامة ، فتلك التي توزعت أهواءهم ، وأذلوا أعناقهم لها من دون الله أملاً في التعزز بها سوف تتناصر يوم القيامة على تكذيبهم ، وتتحد على مضادتهم والتنكر لهم .[3] ولا

---

١ انظر : البحر المحيط ٢١٥/٦، وتفسير أبي السعود ٢٨٠/٥ ، ومن الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء المفسرين قد أشار إلى ضمير الجماعة في (سيكفرون ويكونون) يحتمل أن يكون عائدًا على الكفار لا على الآلهة، وهو – فيما نرى – احتمال بعيد ؛ إذ أن مضادة الكفار للآلهة لا تبلغ ما تبلغه مضادة تلك الآلهة لهم في تجسيد الإحساس بخيبة الأمل وضلال المسعى لديهم في هذا الموقف .

٢ الكشاف ٥٢٣/٢

٣ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية صـ ١١٤، ١١٥

أجد تعقيبًا على ذلك أفضل من قول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (فصلت ١٩ – ٢٣) .

ومنه – عكس ما سبق – **العدول عن المفرد إلى الجمع** ، نحو قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾ (إبراهيم ٣١) . عدل عن المفرد « خُلة » إلى الجمع « خِلال » ، ولعل وجه إيثار الجمع – في إبراهيم – على المفرد – في البقرة [1] – أنه لما لم يذكر " شافعة في إبراهيم كما ذكرت في البقرة ذكر الجمع ليتناول نفي الخلة ، وكل ما يشابهها ، أو يرتبط بها كالشفاعة وغيرها ، ولا يغيب عنا ما بين الخلة والشفاعة من ارتباط .

ويؤيد هذا قول **الألوسي** في المقصود بالإفراد أو الجمع بأن : " المراد واحد وهو نفي أن يكون هناك خليل ينتفع به بأن يشفع له يسامحه بما يفتدي به " [2] .

ولو تأملنا عبارة الألوسي هذه ، نجد أنها تنفي الخلة وكل ما يشابهها أو يتعلق بها ، كالشفاعة أو المسامحة أو الافتداء بشيء .

ومن شواهد **العدول عن التثنية إلى الإفراد** قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه ١١٧) .

---

١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾(البقرة ٢٥٤)

٢ روح المعاني ٢٢/١٣

ففي العدول إسناد فعل الشقاء إلى الضمير المفرد في " فتشقى " العائد على آدم عليه السلام عن إسناده إلى ضمير التثنية الذي يقتضيه ظاهر السياق في «يخرجنكما» ، وقد ذكر المفسرون في بيانهم لدلالة هذا العدول رأيين :

<u>الأول</u> : أن في ضمن شقاء الرجل وهو قيّم أهله وأميرهم شقاءهم ، كما أن في ضمن سعادته سعادتهم ، فاختص الكلام بإسناده إليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة . قال الفراء : " ولم يقل : «فتشقيا» ؛ لأن آدم هو المخاطب ، وفي فعله اكتفاء من فعل المرأة "[1] .

<u>الثاني</u> : أن المراد بالشقاء التعب في طلب القوت ، وذلك على الرجل دون المرأة . يقول القرطبي : " ولم يقل : «فتشقيا» لأن المعنى معروف ، وآدم هو المخاطب وهو المقصود ، وأيضًا لما كان هو الكادُّ عليها والكاسب لها كان بالشقاء أخص ... ومن ذلك يعلم أن نفقة الزوجة على الزوج ، وأن النفقة التي تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن "[2] .

ومن شواهد **العدول عن التثنية إلى الإفراد** كذلك قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء ١٦) حيث وردت لفظة "رسول" مفردة مع أن ظاهر السياق يقتضي تثنيتها " فقولا إنا " .

وقد نتساءل عن سر إفرادها هنا وتثنيتها في سياق آخر ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (طه ٤٧) .

وقد أجاب بعض المفسرين عن هذا التساؤل بأن لفظة " رسول " من الألفاظ أو الأوصاف المشتركة ؛ فهي تعني المرسَلَ أو متحمِّلَ القول حينًا ، والرسالة أو القولَ المتحمَّل حينًا آخر ، فهي بالمعنى الأول في سورة طه ، وبالمعنى الثاني في سورة الشعراء ، ومن ثم ثُـنِّيت في الأولى لأنهما رسولان، وأفردت في الثانية لأنها رسالة واحدة[3] .

---

١ معاني القرآن ١٩٣/٢

٢ تفسير القرطبي ١٦٨/١١ ، ويُنظر : الكشاف ٥٥٥/٢ ، ٥٥٦ ، وتفسير أبي السعود ٤٥/٦ ، والبحر المحيط ١٨٤/٦

٣ أسرار التكرار في القرآن صـ ١٤٠ ، بصائر ذوي التمييز ٦٩/٣ ، ٧٠

لكننا نطمئن إلى القول بأن لفظة " رسول " في كل من الآيتين الكريمتين لا تعني سوى الشخص المرسل ، أما تثنيتها في آية طه وإفرادها في آية الشعراء فإنه يرجع فيما نحسب – والله أعلم بمراده – إلى اختلاف السياق في كل من السورتين عنه في الأخرى ؛ فكل من الآيتين الكريمتين قد سبقت في سياقها بإعلان الخوف من بطش فرعون وطغيانه ، غير أن هذا الإعلان قد ورد في سورة طه على لسان الرسولين – موسى وهارون عليهما السلام – ومن ثم جاءت لفظة " رسول " مثناه لبعث الطمأنينة والثقة في قلبيهما ، واقتلاع جذور الخوف من نفسيهما معًا : ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ (طه ٤٥ – ٤٧) . وقد سبق بيانه .

ومن شواهده أيضًا قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ (طه ١١٧) .

سابعًا : العدول في الأدوات والحروف :

أ- **المغايرة بين الأدوات** ، أي إيثار أداة على غيرها في سياق معين ، كالمخالفة في السياق الواحد بين أداتي الشرط (**إنْ – إذا**) وهذه المخالفة أو العدول لابد أن يترتب عليه هدف مقصود ، هو الذي توحي به الدلالة الجديدة المترتبة على هذا العدول ، وهذا يتبين لنا في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ ﴾ (الأعراف ١٣١) فالأداتان تتفقان في تأدية معنى وظيفي عام هو (الشرط في الزمن المستقبل) غير أن لكل منهما خصوصيتها في تأدية هذا المعنى ؛ لأن الشرط مع «إن» أمر محتمل مشكوك فيه ، أما مع « إذا » فهو أمر مؤكد مقطوع بوقوعه [1] ولهذا الفارق – كما ذكر النحاة والبلاغيون – غلب اقتران

---

١ قال سيبويه : " **ويبيّن هذا لأن إذا تجيء وقتًا معلومًا ، ألا ترى أنك لو قلت : آتيك إذا احمر البسر كان حسنًا ، وإن قلت : آتيك إنْ احمر البسر كان قبيحًا ؟ فـ « إنْ » أبدًا مبهمة** " (الكتاب ٦/٣) ، ويُنظر : المُقتضب ٥٤/٢ ، ٥٥

الأولـى « إنْ » بصـيغة المضـارع ، والثانيـة « إذا » بصـيغة الماضـي ، وذلك لأن الماضي هو أقرب للقطع من المستقبل .[1]

علـى أسـاس هذا الفارق جاء العـدول في الآية الكريمة عن «إذا» إلـى « إن » مـؤديًا دوره فـي إبـراز المفارقـة التـي سيقت لتصـويرها أعنـي المفارقـة بـين حـال آل فـرعون حـين يشـملهم الـرخاء ، ويعـم ربوعهم الخير والخصب ، وحالهم حين ينزل عليهم الجدب ، ويكون القحط والضيق ، فهم في الحال الأولى راضون مطمئنون واثقون من أن الخير حقهم ، ونتيجة طبيعية لسعيهم وجدهم فـي الحياة ، أما في الحـال الثانيـة فيشتد بهم الجزع ، ويبادرون إلى نسبة ما نزل بهم من الجدب والقحط إلـى وجـود موسـى عليه السلام وأتباعه بينهم علـى أسـاس أن هـؤلاء – فـي زعمهـم – هـم الشـؤم الـذي غيـر حـالهم مـن رخـاء ونعيم إلى بؤس وشقاء !

ولإبراز هذه المفارقة كانت المخالفة بين أداتي الشرط ، فأوثرت فـي جانـب الحسـنة « إذا » لتفيد كثـرة تتابع الخيـرات وتـواردها علـى هؤلاء القوم ، وفي ذلك تجسيد لما هم عليه من غفلة وجحود ، أما في جانـب السيئة فقد أوثـرت « إنْ » لتفـيد أنّ مـا يجـزعون هـذا الجـزع المبالـغ فيه ليس إلا أمرًا نادرَ الوقوع .

ولعلنا نلاحظ أن ممـا يصـور شـدة هـذا الجـزع لـديهم العــدول المعجمي في صيغة الشرط عن لفظ « المجيء » إلى لفظ «الإصابة».

وقد لحظ كثير من المفسرين أن هذه المخافة بين الأداتين تتآزر بدلالتها مـع المخالفـة بـين صـيغتي الشـرط ؛ إذ بينما جاء فعل الشرط فـي جانـب الحسـنة بصـيغة الماضـي الدالـة علـى تحقق وقـوع الحـدث «جـاءتهم»، جـاء فـي جانـب السـيئة بصيغة المضارع الدالة على ندرة الوقـوع ، كمـا أنهـا تتآزر كـذلك مـع المخالفـة بـين التعريـف والتنكيـر (الحســنة – ســيئة) ؛ إذ إنّ تعــريف « الحســنة » يفـيد كثــرة الــنعم والخيرات علـى آل فـرعون ، فهـي بالنسبة لهم أمـر معهود مألوف ، كثيـرًا مـا نـَعِمُوا به جاحدين فضـل المنعِم عليهم – عزّ وجلّ – بـه ، أما تنكيـر « سيئة » فيفيد أنهـا أمـر طـارئ عليهم لا عهـد لهـم بـه ، وعلـى الـرغم مـن ذلـك فـإنهم يـبادرون عـند وقـوعها إلـى التنصـل مـنها ،

---

[1] انظر : مفتاح العلوم صـ ١٠٤ ، الإيضاح صـ ٩١ ، والبرهان في علوم القرآن ٤/٢٠٠ ٢٠١

والادعاء – سفاهة وجهلا – أنها من شؤم موسى – عليه السلام – وتابعيه ، ناسين أو متناسين أن مقام هؤلاء بينهم ليس مقصورًا على وقت السيئة فحسب ![1]

ومن شواهد العدول إلى أداة الشرط « إنْ » وإيثارها على الأداة « إذا » ما لحظه الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة ٢٤) حيث يقول : " فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب ، فهلا جيء بـ « إذا » الذي للوجوب ، دون « إنْ » الذي للشك ؟ قلت : فيه وجهان.

أحدهما : أن يُساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم ، لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام .

والثاني : أن يتهكّم بهم ، كما يقول الموصوف بالقوة ، الواثق من نفسه بالغلبة على مَنْ يُقاويه : إنْ غلبْتُك لم أبْقِ عليك ، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقّنه تهكُّمًا به " .[2]

ب ـ التبادل الدلالي بين حروف الجر :

وهذا الإجراء العدولي يخرج الصياغة عن بنائها المألوف فتكتسب تأثيرا جماليا بالنظر إلى نظم العبارة وإلى تأويلها من جانب المتلقي . وقد تتبع النحاة –باستقصاء– معاني حروف الجر ، وذكروا شواهد كثيرة لمواضع التبادل الدلالي بينها[3] ، وأشار البلاغيون والمفسرون إلى بعض الملامح البلاغية والجمالية التي يفرزها التقارض بين حروف الجر .

---

١ يُنظر : الكشاف ١٠٦/٢ ، تفسير البيضاوي ٢٤/٣ ، تفسير أبي السعود ٢٤٦/٣ ، والبرهان في علوم القرآن ٢٠١/٤

٢ الكشاف ٢٤٧/١ ، ويُنظر موضع آخر ٢٧٨/٢ ، ٢٧٩

٣ يراجع : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٢١/٣ – ٥٢ . ابن هشام ، ومغنى اللبيب ١/ ١٩١،١٦٨،١٦٣،٨٨،١١٨، مواضع كثيرة .

ومن شواهد ذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ﴾ (الإنسان ٥،٦) يقول ابن قتيبة : " تقول العرب : شربت بماء كذا وكذا ، أي من ماء كذا . قال تعالى : « عينًا يشرب بها المقربون » و « عينًا يشرب بها عباد الله » ويكون بمعنى يشرب بها عباد الله ويشرب منها " .[1]

أفاد ابن قتيبة[2] أن « الباء » في الآية بمعنى « مِن » وبمثل ذلك قال الهروي في كتاب الأزهية .[3]

والتبادل الدلالي هنا بين « الباء » و « من » يسمح باتساع الصياغة لعدة دلالات وتأويلات ، منها :

١- حين يكون المفعول « العين » متوحدا بكلية الفعل ذاته ووسيلته ، تصبح المسافة بين الرغبة وموضوعها مسافة محذوفة .

٢- الإيحاء بعدم الانتقاص من مصدر النهل ، وتؤكد ذلك الإيحاء مفارقة ذكية ، نستطيع أن نستشفها في المقابلة بين المألوف وضده (يشربون من كأس/ يشربون بالعين) وربما عضّد فعل «يفجرونها» مقرونا بالمفعول المطلق « تفجيرا » دلالة اللامألوف ذاته (الديمومة أو اللاتناهي) .

٣- كأن « العين » و « الكأس » صنوان ، يشرب الشاربون « منهما » أو ربما « بهما » ، وفي هذه المبالغة في وصف النعيم تأكيد لاتساع مستويات العطاء أو المتعة بلا حدود ، فأنت تشرب بالكأس من العين ، وتشرب بالعين مما هو أكبر ، وأكثرها تدفقا (العين كأس لشراب آخر) ، هنا تقوم " قوة تحرير الخيال "

---

١ تأويل مشكل القرآن صـ ٥٧٥
٢ تأويل مشكل القرآن صـ ٥٧٥
٣ كتاب الأزهية في علم الحروف صـ ٢٨٣

بتعديد سطوح الحلم إلى غير مدى ، وتجعل من ذلك الحلم أيضا حقيقة تقبل الوجود[1] .

٤- دخول الباء هنا لا يقصر الدلالة على معنى الشرب فقط ، بل يضيف إليه فضاءات دلالية أخرى تضفي على الشرب جوا من النشوة الروحية والحسية ، كدلالة الالتذاذ والمتعة حيث تصير البنية العميقة للصياغة : " فيشربون منها فيلتذون بها "[2] . ودلالة الارتواء والشبع ، تكون البنية العميقة : يرتوي بها عباد الله .

٥- ونجد في الباء هنا دلالة تهمس بأن العين هي مستراحهم ، والمكان الذي يجدون فيه متعة العين ، وسعادة النفس ، فالكأس بأيديهم وهم على حافة العين يشربون ، كلما فرغت الكأس ملئوها منها ، ولذة الشرب ممزوجة بلذة العين . ويؤيده وصف القرآن للجنات " تجري من تحتها الأنهار " وليس جريان الأنهار تحت المؤمنين إلا متاعًا لأنظارهم، وإسعادًا لأنفسهم وليس لمجرد الشرب دنت منهم الأنهار[3] .

تتمثل بلاغة العدول – إذن – في كسر أفق التوقعات بالمخالفة بين حرفي الجر « من » و « الباء » في مستوى البنية السطحية ، لينتج نظم الآية الكريمة مستويين دلاليين متغايرين ، مع أنهما يجمعهما – ظاهريا – سياق واحد ، فلله در التنزيل .

ومن شواهد **تبادل الحروف** والعدول إلى حرف وإيثاره على غيره ، نحو قوله تعالى : ﴿ **بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا** ﴾ (الزلزلة ٥) والأصل " إليها " . قال **أبو حيان** (ت٧٤٥هـ) – وتابعه **ابن الصائغ** (ت٧٧٦هـ) – : " وعدّى أوحى باللام ، وإن كان المشهور تعديتها بـ « إلى » لمراعاة الفواصل "[4] .

---

١ النص القرآني من الجملة إلى العالم صـ ٤٨ ، ٤٩ . د/ وليد منير . المعهد العالمي للفكر الإسلامي . القاهرة . ط١ . ١٩٩٧م .

٢ يراجع : الانتصاف (على هامش الكشاف) ١٩٦/٤ ، والفتوحات الإلهية ٤٥٤/٤

٣ من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم صـ ١٩٧

٤ البحر المحيط ٥٠١/٨ ، والإتقان ٣٤٥/٣ ، ومعترك الأقران ٤٩/١

وتلتفت الدكتورة **عائشة عبد الرحمن** في تفسير هذه الآية إلى ملحظ بياني طريف تتمثل فيه بلاغة العدول ، فتقول : " ونستقرئ مواضع فعل الإيحاء في القرآن كله فلا نراه يتعدى إلى « إلى » إلا حين يكون الموحى إليه من الأحياء ، يطّرد ذلك في كل آيات الإيحاء بـ « إلى » ، وعددها سبع وستون آية .[1]

وأما حين يكون الموحى له جمادا ، فالفعل يتعدى باللام كآية الزلزلة ، أو بحرف « في » كما في آية فصلت ﴿ **وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا** ﴾ (فصلت ١٢) ودلالة « اللام » الإيحاء المباشر على وجه التسخير ، ودلالة « في » البث والملابسة .

وأما الإيحاء بـ « إلى » فيأخذ دلالته الخاصة في المصطلح الديني للوحي إذا كان الموحى إليه من الأنبياء ، وإلى غير الأنبياء بشرا أو حيوانا ، يكون الإيحاء بمعنى الإلهام ، وللجماد بمعنى التسخير ، ومن هنا كان إيثار التعدية بـ « اللام » لما في معنى «اللام» من اختصاص وإلصاق وصيرورة وتقوية الإيصال ، وهي معانٍ عرفها اللغويون أنفسهم فيها ، وعدوها فيما عدوا من معانيها التي أحصاها **ابن هشام** في (مغني اللبيب) وإن لم يلتفتوا إليها هنا في البيان القرآني ، بل قالوا إن « اللام » تقوم مقام « إلى » بشاهد من آية الزلزلة : " أوحى لها " .[2]

إذن فالتعدية بـ « اللام » هنا متعينة مقصودة ؛ لأن الموحَى إليه جماد ، كما هدى الاستقراء القرآني . وهكذا يرقى الحس البياني بإيضاح بلاغة العدول في الآية الكريمة .

ثامنًا : التبادل الدلالي بين طرق القصر (العدول من طريق إلى آخر) :

نبه البلاغيون القدماء إلي أن الناتج الدلالي المباشر لطرق القصر وأدواته يتصل بالمتلقي وردود أفعاله تجاه مفردات العالم الخارجي و الأشياء المختلفة المحيطة به .

---

١ يُنظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم صـ ٧٤٦ ، ٧٤٧ – مادة « وحي »

٢ انظر الإعجاز البياني صـ ٣٧٧ ، والتفسير البياني صـ ٩٢ ، وراجع مغني اللبيب لابن هشام ١٩٣/١

وطريق القصر (بالنفي والاستثناء) أصل استعماله أن يكون فيما يجهله المخاطب وينكره . وأصل القصر (بإنما) أن يكون فيما يعلمه المخاطب ولا ينكره .[1]

يقول **عبد القاهر** : " وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئا هو من المعلوم الذي لا يشك فيه ، قد جاء بالنفي ، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه " .[2]

وهذا يمثل الصياغة في تشكيلها الموافق لمقتضى الظاهر ، ولكن قد يتحور تشكيل الصياغة عدولا بالدلالة إلى خلاف مقتضى الظاهر ، لتنتج أدوات القصر وبقية الدوال الأخرى واقعا صياغيا مفارقا للواقع الفعلي للمتلقي ، وهنا يبرز عنصر القصدية من جانب المرسل/ المنشئ حيث يتوخي من صياغته المخالفة لمقتضى الظاهر تحقيقَ أهدافٍ جمالية ، كأن ينزل المعلوم منزلة المجهول ، فيعدل عن « إنما » – التي هي الأصل في المعلوم – إلى « النفي والاستثناء » ليلفت انتباه المتلقي إلى حالة الانفصام بين موقفه الباطني العميق (وهو علمه بمضمون الرسالة) وبين رد فعله الظاهر (وهو جهله بمضمون الرسالة) .

وردّ فعل المتلقي الظاهر هو الذي يلتقطه المرسل/ المنشئ ويشكل واقعه الصياغي وفق مقتضياته ، ليحث المتلقي على المسارعة بالتوفيق بين اعتقاده الباطني وبين رد فعله الظاهري .[3]

ومن شواهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ (آل عمران ١٤٤) .

نلحظ أن طريق القصر هنا (النفي والاستثناء) وهو يشكل واقعا صياغيا تجسد دلالته جهل المتلقي بمضمون الخطاب وإنكاره له ، ولكن الواقع الفعلي للمتلقي الخاص – وهم الصحابة رضوان الله عليهم– مفارق للواقع الصياغي ؛ لأن الصحابة – رضوان الله عليهم – يعلمون أن محمدًا ﷺ بشر ، رسولٌ كغيره من الرسل ، يموت كما يموتون ، ويؤمنون بذلك إيمانا جازما ، ولكن ردود أفعالهم التي ظهرت عليهم عقب إشاعة قتل الرسول ﷺ في غزوة

---

١ الإيضاح ١٨/٢ ، ومفتاح العلوم صـ ١٤٢ (طبعة الحلبي)
٢ دلائل الإعجاز صـ٣٣٣ (تح/ شاكر)
٣ تحولات البنية في البلاغة العربية صـ ١٩٣

أحُد تخالف هذا الإيمان الباطني الجازم . فكثيرون منهم استعظموا موته ، وتركوا القتال غير مصدقين هذا الخبر ومنكرين له ، فلما كان حالهم كذلك وردت الصياغة وفق مقتضى رد الفعل الظاهري – وهو حالهم – لتلفت المتلقي الخاص – وهم الصحابة رضوان الله عليهم – إلى أن استعظام خبر موت النبي ﷺ وإنكارهم له كجهلهم برسالته وإنكارهم لها ؛ لأن كل رسول مكتوب عليه الموت ، فمن استبعد موته فقد استبعد رسالته ، وفي هذا حث للمتلقي علي وجوب المواءمة دائما بين اعتقاده الباطني وبين أفعاله الظاهرة .

ويشير التركيب بصياغته الظاهرية إلى عدة دلالات . ففيه عتاب عنيف، للمخاطبين واستجهالٌ ، وإشارة إلى غفلتهم ، وأنهم لا يسلكون في المواقف الصعبة مسلكا ينبثق من مضمرات قلوبهم ، ويلتزم بما ترسّخ فيها من اعتقاد ، وأن أصول الاعتقاد توشك أن تهتز بالنوازل العارضة مع أنكم لا تزالون في نضارة اليقين ، ولا يزال صليل الوحي يتردد صداه في آفاقكم .[1]

القصر بـ « إنما » فيما يعلمه المخاطب ولا ينكره – كما سبق أن بينا – لذلك التركيب ينتج دلالة تعريضية موازية لدلالتها المباشرة ، لأن المتلقي لن يفيد شيئًا إذا وجهت له رسالة يعلم مضمونها تمام العلم، لذلك يقول عبد القاهر: " اعلم أنك إذا استقريت وجدتها – يقصد إنما – أقوى ما تكون ، وأعلق ما تكون بالقلب ، إذا كان لإيراد كلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه ".[2] فنحن نعلم أنه ليس الغرض من قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد ١٩) أن يعلم المتلقي ظاهر معناه ، ولكن أن يدرك أن المراد ذم الكفار ؛ لأنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى ، في حكم من ليس بذي عقل. وإنكم إذا طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في النظر والتذكر من غير أولى الألباب .[3]

وقد يكون مضمون الرسالة/ الخطاب مجهولا ، ولكن المرسل يدعي ظهوره ووضوحه فيقدم صياغة على خلاف مقتضى الظاهر – كأن ينزل المجهول منزلة المعلوم فيستعمل «إنما » – عدولا عن طريق «النفي» الذي هو الأصل فيما هو مجهول لدى المخاطب أو مشكوك فيه؛ لتوصيل رسالة خروجه

---

١ دلالات التراكيب صـ ١١١

٢ دلائل الإعجاز صـ٣٥٤ كقولنا علي مسمع من المهل " إنما ينجح المجد "

٣ نفسه صـ ٣٥٤

علي خلاف مقتضى الظاهر لتعكس الصياغـةُ هذا القصدَ الادعائيَّ . كما في قولة تعالي – حكاية عن المنافقين – :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (البقرة ١١- ١٢) .

فالخطاب/ الرسالة " إنما نحن مصلحون " معلومة ظاهرة ، والمرسل/ المتكلم هم المنافقون الذين يدّعون الإصلاح ، والمتلقي العام للخطاب : (المسلمون) وقد وقعت الرسالة بين رسالتين تهدف صياغتهما إلى كشف ادعاء المنافقين و كذبهم ، فكان من خصائص صياغة هذه الرسالة أن صدرت بأداة الشرط « إذا » التي تفيد تحقق ما بعدها وكثرة وقوعه ، وهذا يشير إلى كثرة إفسادهم ، بدليل كثرة نهيهم عنه . وهنا ينكر المنافقون حدوث الفساد منهم ، ويدّعون أنهم مصلحون، وأن صلاحهم ظاهر ، بل يتمادون في الادعاء فيقصرون أنفسهم علي الإصلاح ، وتأتي الرسالة الثانية لتهدم ادعاء المنافقين وتكشف كذبهم ، وتنبه علي إفسادهم تنبيها محسوسا عن طريق تكثيف دلالة التأكيد بتوالي المؤكدات الآتية :

١- بدئت الصياغة بـ « ألا » التي تفيد تنبيه المخاطب على تحقيق ما بعدها لئلا يفوت المقصود بغفلة منه .[١]

٢- جاءت الجملة بعدها اسمية لتفيد الثبوت بأصل وضعها الدلالي .

٣- وصدرت الجملة بـ "إن " التي تفيد التوكيد .

٤- وعرف الخبر (المفسدون) بـ « ال » لزيادة التوكيد .

٥- جاء ضمير الفصل (هم) ليكثف دلالة التوكيد ويعلي نبرة الصياغة لتهدم – تماما – ادعاء المنافقين و تكشف زيفهم وكذبهم .[٢]

---

١ يرى الإربلي أن « ألا » حرف مركب من همزة الإنكار وحرف النفي ، والإنكار نفي ، ونفي النفي إثبات ، فرُكّب الحرفان لإفادة التوكيد والتحقيق . (جواهر الأدب في معرفة كلام العرب صـ ٤١٦)

٢ المفتاح صـ ١٤٣ ، وتلخيص المفتاح ٢/ ٢٠

قال الزمخشري : " رد الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردٍّ وأدلّــه علي سخطٍ عظيمٍ ، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف ، وما في كلتا الكلمتين «ألا» و «إن» من التأكيدين، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل".[1]

مما سبق ندرك أن **التبادل الدلالي بين طرق القصر** يقترن دائما بإزاء النص الأدبي ، ويسهم في إخراج دلالته من دائرة الوحدة إلى منطقة تعدد الدلالات المحتملة وانفتاح النص ، واحتماله تأويلات متعددة ، تبعا لقدرة المبدع/ المنشئ على استخدام طرق القصر بأسس فنية تخدم البنية الكبرى للنص " لأن قدرة المبدع/ المنشئ على استعماله لهذه الأدوات الثانوية قد تتجاوز كل ما يظنه البلاغيون أنهم أحاطوا بأبعاده ، وهي في السياق يومئ وضعها فيه إلى ما يشبه «الرمز الإشاري» لتفجير ظلال من الإيماءات الفنية الخاصة " .[2]

تاسعًا : التبادل الدلالي بين الجمل :

ونعني به العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية وعكسه ، أو العدول عن الجملة الخبرية إلى الجملة الإنشائية وعكسه .

من المعروف أن الفعل موضوع لإفادة الحدوث والتجدد " والمراد بالتجدد في الماضي الحصول ، وفي المضارع أن من شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى " .[3] ومعروف أن الجملة الاسمية تدل على ثبوت الحدث بالمطابقة، والفعلية تدل عليه بالتضمّن ، ومن هنا قيل : التعبير بالجملة الاسمية أقوى من التعبير بالجملة الفعلية .[4] غير أنّا نرى أن قوة التعبير وبلاغته متعلقة بالسياق اللغوي والموقفي والداخلي والخارجي ، لذلك **فالتحليل الأسلوبي** لا يتحدث عن الأفضل وإنما عن الأنسب .

وبناءً على ذلك فللسياق أثر مهم في إنتاج جماليات/ بلاغات أخرى لأنواع الخطاب بالجملة الاسمية أو الفعلية ، وقد يفرض سياق الموقف الانتقال من أحد الخطابين إلى الآخر تحقيقًا لأسرارٍ بلاغيةٍ يجب الانتباه إليها وتوجيه ذهن المتلقي للبحث عنها مشاركًا منشئ الخطاب في إبداعها ، ولاسيما أن البحث الأسلوبي ينص على التفاعل بين المبدع والمتلقي .

---

١ الكشاف ١/١٨٠ - ١٨١
٢ رجاء عيد . البلاغة العربية . صـ ١٠٥
٣ الإتقان في علوم القرآن ٣١٧/٢
٤ عروس الأفراح ٢٢٠/١

أ – **العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية وعكسه** : ذكرنا أن السياق قد يفرض العدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية أو عكس ذلك حسبما يقتضي المقام ، وأحوال الخطاب . فمن شواهد العدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ

مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ (البقرة ١٤) تحكي الآية الكريمة موقفين للمنافقين ، وقد

أثر سياق كل موقف ، وحال طرفي الاتصال في الصياغة ، فالمنافقون في خطابهم المؤمنين الذين يعرفون أمارات المنافقين ، يعبرون بالجملة الفعلية (آمنا) ، لأنهم يتحدثون عن إيمانهم المزعوم. وهو شيء عارض استلزمه موقف التقية والمداجاة [١] ، فليس له أصل ثابت في نفوسهم يدفعهم إلى توكيده ، والتعبير عن ثبوته ، كما أنهم يعلمون أن حديثهم لن يروج عند المؤمنين ، حتى لو أكدوه بأوكد لفظ إلا رواجًا ظاهرًا لا باطنًا .

وهم في خطاب شياطينهم من المنافقين والكافرين يتحدثون عن أصل ثابت مكين يجمعهم معاً، وهو كفرهم المستقر في قلوبهم ، فعبروا بالجملة الاسمية (إنا معكم) المؤكدة بـ « إن » ، وهي تصور ثبوت الشرك في قلوبهم ، وتمسكهم به ، وحرصهم على استمراره ، فحديثهم عن الكفر صادر عن صدق ورغبة ووفور نشاط، لذلك كان متقبلاً منهم ، ورائجاً عند إخوانهم [٢] .

وقد جسدت المفارقة في الصياغة وعدولها عن الفعلية إلى الاسمية حال الشتات والازدواجية التي تسيطر على المنافقين ، وتصوّر مواقفهم تجاه الحياة والأحداث ، فهم في تقلب دائم من النقيض إلى النقيض ، تبعاً للمواقف المتقلبة ، وللمخاطبين المختلفين.

ومثل ذلك أيضًا (أي العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية) قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ

---

١ داجاه : ساتره بالعداوة ولم يُبدها له (اللسان – مادة : د ج و)
٢ يراجع : الكشاف ١٨٦/١ ، ١٨٧ ، والمثل السائر ٢٣٤/٢ ، ٢٣٥، والمفتاح صـ ١٢٦

عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ (لقمان ٣٣) .

فلقد أوثرت الجملة الفعلية في نفي جزاء الوالد عن ولده ، ثم عدل عنها إلى الجملة الاسمية عند نفي جزاء الولد عن الوالد " ولا مولود هو جاز ... " ... يقول الزمخشري في نكتة هذا العدول : " إن الخطاب للمؤمنين ، وعِلـْيَتـُهم قـُبضَ آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهلي ، فأريد حسم أطماعهم وأطماع الناس فيهم أن ينفعوا آباءهم في الآخرة ، وأن يشفعوا لهم ، وأن يغنوا عنهم من الله شيئًا فلذلك جيء به على الطريق الآكد " .[1]

وقد تعقب ابن المنير السني هذا الرأي قائلاً : " إن صحته تقتضي أن يكون الخطاب خاصًا بالموجودين حينئذ ، والصحيح أنه عام لهم ولكل من يُطلق عليه اسم ناس " أما وجه ذلك العدول في نظر ابن المنير فهو أنه " لما كان إجزاء الولد عن الوالد مظنون الوقوع ؛ لأن الله حضه عليه في الدنيا ، كان جديرًا بتأكيد النفي لإزالة هذا الوهم ، ولا كذلك العكس " .[2]

ويضيف الألوسي – إلى ما تقدم – رأيًا آخر في تفسير تلك المخالفة فيقول : " إن العرب كانوا يدخرون الأولاد لنفعهم ودفع الأذى عنهم وما يهمهم ، ولعل أكثر الناس اليوم كذلك ، فأريد حسم توهم نفعهم ودفعهم وكفاية المهم في حق آبائهم يوم القيامة فأكدت الجملة المفيدة لنفي ذلك عنهم " .[3]

والحق أن هذا الرأي الأخير هو – فيما نحس – أرجح ما قيل في تفسير هذا العدول في الآية الكريمة ، غير أننا لا نرى وجهًا لتخصيصه بالعرب دون غيرهم من الأجناس ، ولا بالناس – أو أكثرهم – في عصر دون عصر فالأبناء – دائمًا – هم مثار افتتان الإنسان واغتراره بالحياة ، وهم لا الآباء – عادة – معقد الرجاء ،

---

١ الكشاف ٢١٧/٣ ، وانظر تفسير أبي السعود ٧٧/٧ ، وتفسير البيضاوي ١٥٤/٤

٢ الانتصاف : بحاشية الكشاف ٢١٧/٣ – ٢١٨ ، ويُنظر : غرائب القرآن . هامش الطبري ٦٣/٢١ ، والبحر المحيط ١٩٤/٧

٣ روح المعاني ١٠٧/٢١

مغرس الأمل ، وحلم المستقبل ومن ثم فإن مراد العدول في الآية هو اقتلاع ما قد يتسلل إلى مسارب النفس البشرية – من أي جنس وفي أي عصر – من توهم نفع الأبناء ، ولعلنا نلاحظ أن تعميم مرد العدول على هذا النحو هو ما يلائم سياق الآية الكريمة التي جاء النداء في صدرها " يا أيها الناس " عامًّا مستوعبًا جميع أفراد الجنس البشري دون تخصيص .

ولعلنا نلاحظ أيضًا أن العدول عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية قد واكبه العدول في الجملة الأخيرة عن لفظة " ولد " إلى لفظة " مولود " ، والفرق بينهما كما ذكر الزمخشري وغيره : أن المولود لا يطلق إلا على من وُلد منك " بلا واسطة " أما الولد فإنه عام يشمل الولد وولد الولد [1] ، وعلى أساس هذا الفرق فإن العدول عن الأولى إلى الثانية يتآزر مع العدول إلى الجملة الاسمية في تأكيد العموم في معنى " عدم الانتفاع بالذرية " ، إذ إن نفي انتفاع الإنسان بولده الذي هو من صلبه يقتضي نفي انتفاعه بمن عداه من باب أولى . [2]

ومنه أيضًا قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ (النحل ١٢٨) ، ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ (الكافرون ٢ ، ٣) .

أما **العدول عن الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية** ، فنحو قوله تعالـــــــــى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ۝١٦ ﴾ (المؤمنون ١٥ – ١٦) تصف الآية الكريمة موقفين مختلفين (الموت والبعث) ، فجاء الحديث عن « الموت » بـ « دال الاسمية » (ميتون) ليرسخ معنى السكون والخمود ، وينشر ظلاله وهيمنته على الصياغة ، ويوقظ المتلقي خالي الذهن الذي يعب من

---

١ ونضيف أن الولد يطلق كذلك على المتبني . انظر : الراغب صـ ٥٣٢

٢ انظر : الكشاف ٢١٧/٣ ، وروح المعاني ١٠٧/٢١ (يُنظر أسلوب الالتفات في القرآن الكريم صـ ٢٠٧ – ٢٠٩

لذات الحياة وكأنه مخلد فيها ، فأنزلته الصياغة المخالفة لمقتضى الظاهر منزلة المنكر للموت، وخوطب بالجملة الاسمية المؤكدة بمؤكدين « إن » ، و « اللام » (لميتون) ، ليتنبه – بعد غفلة – إلى أن الموت هو اليقين الحقيقي في هذه الحياة .

وعندما انتقلت الصياغة إلى الحديث عن البعث، جاء الخطاب بالجملة الفعلية (تبعثون) لتصوير الحركة الدائمة ، وسرعة الانتشار، ولكي يستحضر المتلقي هذه الصورة .

إذن فالعدول إلى الجملة الفعلية لتصوير عملية البعث تصويرًا متحركًا يتلاءم مع تفاصيلها السريعة . ولردع المنكرين له وتوبيخهم، لأن إنكارهم ينهار من أساسه إذا تفكروا في مظاهر الطبيعة المتجددة من حولهم . لذلك خوطبوا خطاب المترددين – أي بخلاف مقتضى الظاهر – فجاءت الجملة مؤكدة بمؤكد واحد « إن ».

وهكذا أسهمت المفارقة اللفظية في انتقالها من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية في تجسيم المفارقة المعنوية بين الموت والبعث ، بين حالة السكون والجمود ، وبين حالة الحركة والسرعة والانتشار، وأدخلت المتلقي في عملية إتمام الدلالة إدخالاً غير عادي ، عن طريق تنزيله منزلة المنكر ؛ لأن تصرفاته الظاهرية تنم عن إنكار وعدم اعتقاد حقيقي لذلك خوطب خطاب المنكر ، وذلك ليعيد تصورَ مواقفِه وآرائِه في الوجود من حوله .

ومنه أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا ﴾ (النساء ٢٧) .

ب – العدول عن الجملة الخبرية إلى الإنشائية و عكسه .

إن التبادل الدلالي بين الخبر والإنشاء يعد لونا من العدول عن الأصل ، أو الخروج عن مقتضى الظاهر ، أو الانحراف بالأسلوب عن قاعدته المثالية ، وإنما يكون ذلك لتحقيق غايات جمالية تضفي على الخطاب الأدبي تأثيرا بالغا ، يقول السكاكي : " واعلم أن الطلب كثيرا ما يخرج لا على مقتضي الظاهر ، وكذلك الخبر فيذكر أحدهما في موضع الآخر ، ولا يُصار إلى ذلك إلا لتوخّي نكت قلّما

يتفطّن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا ، ولا يعض فيه بضرس قاطع ، والكلام بذلك متى صادف متممات البلاغة افترّ لك عن السحر الحلال بما شئت " .[1]

فمن شواهد **العدول عن الإنشاء إلى الخبر** قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (الصف ١٠ ، ١١) نلحظ في قوله تعالى :

"تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله " أن ظاهر الصياغة خبرية ، ولكن المقصود حث المخاطبين على فعل ذلك والإسراع إلى تنفيذه ، بدليل الاستفهام التشويقي الوارد في الآية السابقة " هل أدلكم؟ " ففـُهم من ذلك الحث والتشويق أن الصياغة تتضمن الأمر كأنه قيل : آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله ، ولكن أسلوب القرآن آثر العدول عن الإنشاء إلى الخبر لتحقيق عدة دلالات :

١- حث المتلقي علي الإسراع لتنفيذ التوجيهات الواردة في الخطاب الموجه ، حيث ظهرت الصياغة في المستوى السطحي كأن المأمورين سارعوا بتنفيذ ما أمروا به ، وهاهي الآية تخبر عن امتثالهم بالأسلوب الخبري الوصفي .

٢- توجيه المتلقي إلى الحرص على استمرار الإيمان ، والجهاد ، والإنفاق ، لأن ذلك هو سبيل تحقيق الخير والفوز ، وإيثار الأفعال المضارعة الدالة على التجدد والاستمرار دليل على ذلك.

ومن شواهد **العدول عن الإنشاء إلى الخبر** ، قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ ﴾ (البقرة ٢٣٣) فالنص القرآني هنا عدل عن صيغة الأمر ، فلم يقل : يا والدات أرضعن ، وإنما قال بأسلوب الخبر : " والوالدات يرضعن " ، لأن الأمر عُرضة لأن يُطاع أو يُعصى ، لكن الله أظهر المسألة في أسلوب

---

١ المفتاح صـ ١٥٤

خبريّ على أنها أمر واقعيّ طبيعيّ لا يُخالَف ، والمعوّل في فهم المعنى على السياق.

ومن شواهد العدول عن الخبر إلى الإنشاء قوله تعالى حكاية عن هود عليه السلام وخطابه لقومه : ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (هود : ٥٤) حيث يُنتج العدول عن الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي في هذا الخطاب دلالة الاحتراز عن مساواة شيء لاحق بشيء سابق ، وهذه الدلالة ترجع إلى النظم نفسه ، حيث يقيم فارقًا ملحوظًا بين دوال سابقة ودوال لاحقة ، أو بين نوعين متفاوتين في الأهمية والقدر من المخاطبين [1] ، كما جاء في الآية السابقة ، حيث جاء التعبير : « أشهد الله » مضارع/ خبري ، ثم عُدل إلى و« اشهدوا » أمر/ إنشائي ، فشكلت الصياغة فارقا لفظيا ملحوظا بين إشهاد الله ، وإشهاد قوم هود . [2]

عاشرًا : تجاهل المناسبة المعجمية :

وهذا باب واسع لأنه باب الإفادة والمجاز . أما الإفادة فيأتي ترتبها على المناسبة من جهة أن كلمات المعجم ينسجم بعضها مع بعض ولا ينسجم مع بعضها الآخر بمعنى أن العروج مثلاً إنما يناسبه أن يكون من أسفل إلى أعلى فيقال مثلاً " عرج إلى السماء " والسقوط بالعكس فيقال " سقط من حالق " فلو قيل " يسقط من أسفل " لكان في ذلك إحالة وانتفت الفائدة ، والعلاقة العنادية بين كل كلمتين متنافيتين في هذه الأمثلة تسمى « المفارقة المعجمية » . فإذا كانت علاقات الكلمات في المعجم عرفية ، فقد يخرج المتكلم عن هذا الأصل بواسطة أسلوب عدولي يطّرح للعلاقة العرفية وينشئ في مكانها علاقة أخرى عقلية أو فنية ، فإذا كانت العلاقة عقلية سُمي الأسلوب العدولي مجازًا مرسلاً أو كناية وإذا كانت فنية تشبيهية سمي استعارة ، ومن هنا كان طلب فرعون إلى هامان أن يبني له صرحا ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا ﴾ (غافر ٣٦) مجازًا مرسلاً ، لأن المطلوب من هامان لم يكن البناء ذاته ، وإنما كان الأمر به . وكذلك كان شراء

---

١ يراجع : السكاكي . المفتاح صـ ١٥٥ ، وعبد المتعال الصعيدي . بغية الإيضاح ، ٦٠/٢ (هامش ٢)

٢ راجع تحليل ذلك صـ ٣٤ من هذا البحث ، وينظر : الكشاف ٢٧٦/٢ ، تفسير البيضاوي ١١٢/٣ ، وتفسير أبي السعود ٢١٨/٤ ، وبرهان الزركشي ٣٣٦/٣

الضلالة بالهدى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة ١٦ ، ١٧٥) ليس على حقيقته ، وإنما هو أسلوب عدولي عن الحقيقة ، لأن الضلالة ليست سلعة ، والهدى ليس ثمنا إلا على طريق التشبيه بهما . وكذلك كان قوله : ﴿ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ (المنافقون ٥) بمعنى أعرضوا ، لأن ذلك إنما يكون عند الأعراض دليلا عليه ، ومن ثم فهو كناية عنه . أما الاستعارة ـ وهي ضرب من المجاز ـ فيقول عنها **ابن وهب** (ت ٣٢٨ هـ) : " وأما الاستعارة فإنما احتيج إليها في كلام العرب ؛ لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم ، وليس هذا في لسان غير لسانهم ، فهم يعبّرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له ، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره ، وربما استعملوا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز " .[١]

من أجل هذا قال **عبد القاهر** كلمته المشهورة : " إن من الاستعارة مالا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته " ثم يوضح ذلك مبينًا دقة النظم ولطفه بأنك " ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ، ولم يروا للمزية موجبا سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم ، وليس الأمر على ذلك ... ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه ، فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي للفعل له في المعنى منصوبا بعده مبينا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة " والتعبير القرآني أفاد " لمعان الشيب في الرأس الذي هم أصل المعنى الشمول ، وأنه قد شاع فيه ، وأخذه من نواحيه ، وأنه قد استقر به ، وعمّ جملته ، وهذا ما لا يكون إذا قيل : اشتعل شيب الرأس ، أو الشيب في الرأس ... ثم ترى بلاغة النظم في تعريف «الرأس» بالألف واللام ، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة . وهو أحد ما أوجب المزية . ولو قيل : واشتعل رأسي ، فصُرّح بالإضافة لذهب بعض الحسن" .[٢]

---

١ البرهان في وجوه البيان صـ ١٤٢ ، ويؤيده في ذلك كل من ابن قتيبة ، وابن فارس (يُنظر : تأويل مشكل القرآن صـ ١٦ ، والصاحبي صـ ٧١)

٢ دلائل الإعجاز صـ ١٠٠ ـ ١٠٢ ، وانظر : قضايا النقد الأدبي صـ ٣١٧ ـ ٣١٩ (بتصرف)

ويأتي في سياق الحديث عن تلك النصوص التي تخدم المجاز قول الحق سبحانه : ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ (الرحمن ٦) ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ (نوح ١٧) ، وقوله : ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الحجر ٨٨) ، وقوله : ﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير ١٨) . إن الوجود هنا ينحلّ بعضه في بعض حيث تصير الشجرة إنسانًا ، ويصير الإنسان نباتًا أو طائرًا ؛ إذ يُعير الإنسانُ وعيَه للطبيعة الكونية (اليابس والنجوم والسحاب والزروع) ودبيب روحه للوقت (الصبح الذي يتنفس) فيما تُعيره الطبيعةُ تكوينَها (النَّبْتَ) ومخلوقاتُ الطبيعةِ حركتَها (حركة الجناح) بل إن الطبيعة والإنسانَ كليهما تذوبان في ذلك المطلق ، إذ تحينُ اللحظة المؤجلة فتنمُّ نهايةُ الدورةِ عن أولها ﴿ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ ﴾ (الزمر ٦٧) و ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴾ (القلم ٤٢)

تمثّل كل استعارة إذن في سياق « رؤيا النص » افتتانًا بالانحراف عن لغة العين الواقعية الواصفة . إنها مجاوزة للحياد البارد الذي يجعل من الأشياء في ذاتها هدفًا للرصد والتعيين والمقاربة ؛ فبالبصر تُستبدل البصيرة التي تكشف وتُضيء ، والصورة تنفذ إلى الأثر الذي تستدعيه الأشياء على صفحة العقل المنفعل بها ، وتمتد إلى إدراك تفاعلها مع بعضها لبعض ... ولا يكشف المجاز فقط عن الصلات الإيجابية المتناغمة بين العناصر الجزئية داخل فلك الحقيقة الكلية ، ولكنه يكشف كذلك عن الصلات السالبة بينها ليقع على الوجه الآخر من رمزية الرؤيا .[1]

هذه أثارة من علمٍ يسير ، وقُلٌّ من كُثْرٍ " فالقرآن الكريم حافل بالأساليب العدولية التي تحُلُّ فيها علاقة عقلية أو فنية محل العلاقة الأصلية العرفية ، فيئول الكلام إلى أحد الأساليب البيانية العدولية ، وكل أساليب البيان عدول " .[2]

---

١ وليد منير . النص القرآني من الجملة إلى العالم صـ ٩٨ ، ٩٩

٢ تمام حسان . البيان في روائع القرآن صـ ٣٩٤

حادي عشر : العناية بالمناسبة ورعاية الفاصلة :

لا شك أن للنسق الموسيقي أثرًا لا يخفى ، وعناية العرب به لا تقل بحال عن عنايتهم بالمعاني التي يريدون إقرارها وتثبيتها في النفوس ، لذلك شُغفوا بموسيقى اللفظ ، وازدانت بها لغتهم ، إذ كانوا مفتونين بالوزن ، شديدي العناية بالتنغيم في كلامهم عن طريق التناسب بين المقاطع ، والمزاوجة بين العبارات .

قال الثعالبي (ت٤٢٩هـ) : " كانت العرب تزاوج بين كلمات تتجانس مبانيها وتتكافأ مقاطعها ومعانيها ، فيقولون : القلة ذِلة ، والوَحدة وَحشة ، واللحظة لفظة ، والهوى هوان ... والرمد كمَد " .[١]

يقول ابن منظور معلقًا على قول ابن مُقبل : * هتاك أخبية ولاّج أبوبة *

فإنما قال : أبوبة ، للازدواج لمكان أخبية .[٢]

وقد يخرجون الكلمة عن أوضاعها فيغيرون بنيتها من أجل التوافق النغمي ، أو يحذفون منها ، أو يزيدون فيها لحسن التعادل ، وتكافؤ المقاطع .

فيقولون : « آتيك بالغدايا والعشايا » ، و « هنأني الطعام ومرّأني » مع أن فيه ارتكابًا لما يخالف اللغة " .[٣]

والغداة لا تُجمع على الغدايا، ولكنهم كسروه على ذلك ليطابقوا بين لفظه ولفظ العشايا ، فإذا أفردوه لم يكسروه ؛ لأن « الغدايا » إذا أفردت ، قيل : الغدوات ، و « مرّأني » إذا أفردت قيل : أمرأني .[٤]

إذن فلا عجب أن يراعيَ القرآن ذلك الجانب المؤثر ، لأنه نزل بلغة العرب وجرى على مطابقة سننهم في ذلك كله – أعني الترخصات اللغوية كالحذف أو الزيادة ، أو تغيير بنية الكلمة ، أو غير ذلك من أنماط العدول – ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله أظهر وأشهر .

ولكن الذي يجب التنبيه إليه بداية ، ما جاءت الفاصلة إلا لمعنى جيء مختومًا به ختامًا حَسُنَ شكله ومبناه ، كما حسن مضمونه ومحتواه ، وفواصل

---

١ يتيمة الدهر ٢٠٢/٤

٢ لسان العرب – مادة : ب و ب

٣ البرهان في علوم القرآن ٧١/١ ، ونهاية الأرب في فنون الأدب ١٠٣/٧

٤ راجع لسان العرب – مادة (غدا) ، والصاحبي صـ ٣٨٤ ، والمزهر ٣٣٩/١ .

القرآن كلها بلاغة وحكمة ؛ لأنها الطريق إلى إفهام المعاني .[1] ولأنها تتضمن وظائف معنوية وتتغيّا أن يكون لها وضع في الآذان لكي تنفذ الآيات منها إلى القلوب ؛ إذ الهدف ليس هو إمتاع الآذان ، بل استرعاءها للسماع والإصغاء .

وهذا ما يتغيّاه الاتجاه العام في النقد الحديث من عدم الفصل بين ما يُسمى بـ « الشكل والمضمون » ، لصعوبة ذلك الفصل وعدم إقناعه ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يتأكد في النص القرآني حيث يبدو « الدال والمدلول » في وحدة عضوية وثيقة . ومن ثَمَّ كان « إنتاج الدلالة » فيه أمرًا مميزًا .

والآن نفصِّل ما أجملناه من صور العدول التي ارتبطت بهذه لسنن في لغة العرب ، والتي جاء بها القرآن :

أ – في تغيير بنية الكلمة :

ومن شواهد ذلك في القرآن قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴾ (الشمس ١١) وقوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى ٦-٨)

يقول الفراء في آية الشمس : " أراد بـ « طغيانها » إلا أن الطغوى أشكل برءوس الآيات ، فاختير لذلك " .[2]

قال ابن عباس : " الطغوى هنا : العذاب ، كذبوا به حتى نزل بهم[3] ، لقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ ﴾ (الحاقة ٥) .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى : ﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ (البقرة ٩٨)

والأصل : وميكائيل . ونحو قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات ١٣٠) والأصل : إلياس . ونحو قوله تعالى:﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين ٢) والأصل : وطور سَيْناء ، لقوله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن

---

١ بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) صـ ٢٤ – ٢٦ (بتصرف)
٢ معاني القرآن ٣/٢٦٧
٣ البحر المحيط ٨/٤٧٥

طُورِ سَيۡنَآءَ ﴾ (المؤمنون ٢٠) فالطور الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه ، وسينين : الحُسْنُ ، بلغة النبط ، فالكلمتان « سينين » و « سيناء » لغتان فالأولى بلغة الحبشة والثانية بلغة النبط [١] .

وقال **الزمخشري** تعليقًا على **آية الصافات** : " وقُرئ على : إل ياسين وإدريسين ، وإدراسين على أنها لغات في إلياس وإدريس ، ولعل لزيادة الياء والنون السريانية معنى ... وأما من قرأ على : " آل ياسين " ، فعلى أن ياسين اسم أبي إلياس أضيف إليه الآل " [٢] .

وأرى أن لهذا العدول في البنية فائدتين أخريين ، **الأولى** : أن في إعادة الاسم المُظهر تنويهًا بشأن إلياس عليه السلام وتقريرًا لاسمه في الأذهان ، تأكيدًا لتعظيمه فيها وإعلاءً لقدره في مقام الدعوة ، **والثانية**: أن زيادة الياء والنون اللتين ألحقتا باسمه عليه السلام أعطتا الفاصلة نوعًا من التنغيم الموسيقي بما يُحَسُّ من النون المردوفة بالياء الممدودة ، مما يصوّر كمال العناية بإلياس عليه السلام وإعلاء شأنه .

ومما يتصل بتغيير البنية ما نجده في قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ (نوح ١٧) والأصل : « إنباتًا » فعدل عن مصدر الفعل الأصلي إلى اسم المصدر « نباتًا » ، لأن الإنبات هنا استعارة في الإنشاء (أنشأ آدم من الأرض وصارت ذريته منه) . [٣] وفيه إشارة إلى أن الإنسان هو من وجهٍ نبات ، من حيث إن بدأه ونشأه من التراب، وإنه ينمو نموه وإن كان له وصف زائد على النبات ، وعلى هذا نبّه بقوله : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ ﴾ (غافر ٦٧) . [٤]

---

١ انظر : تفسير القرطبي ٧٦/٢٠ ، وتفسير النيسابوري ١٢٠/٣٠ ، والبرهان في علوم القرآن ٦٢/١
٢ الكشاف ٣٥٢/٤ ، ٣٥٣
٣ البحر المحيط ٣٣٤/٨ ، ويُنظر : الكشاف ١٦٣/٤
٤ المفردات في غريب القرآن صـ ٤٨٠

ولما كان له وصف زائد على النبات صار مُغايرًا من وجه للنبات ، فغاير في صيغة المصدر . (والله أعلم بمراده)

إذن فقوله « نباتا » موضوع موضع « الإنبات » وقد تفعل العرب ذلك كثيرًا أن يأتوا بالمصادر على أصول الأفعال ، وإن اختلفت ألفاظها في الأفعال بالزيادة ، وذلك كقولهم : تكلم فلانا كلامًا ، ولو أخرج المصدر على الفعل لقيل : تكلم فلان تكلُّمًا .[1]

وخلاصة القول : من بلاغة العدول في هذه الشواهد مراعاة الفاصلة كما يرى بعض المفسرين[2] ، فهم يصفون مدى ارتباط الشكل بالمضمون ، وموسيقى الفاصلة جزء من الشكل وجزء من المضمون ، ويرون أن التعبير القرآني قد يلجأ أحيانًا إلى الحذف إذا عُرف المعنى ، أو دلّ عليه دليل سابق ، فيجتمع الحذف ومراعاة الفاصلة كما نشاهد فيما يلي :

ب – في الحذف :

ومن شواهده قوله تعالى : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾ .

ففي قوله تعالى : " ما ودعك ربك وما قلى " حيث حُذف ضمير الخطاب المضاف إلى الفعل " قلى " فمنهم من قال : حُذف

---

١ تفسير الطبري ٣/١٦٢ ، ويُنظر : تفسير القرطبي ١٨/١٩٧

٢ ينظر على الترتيب :الثعالبي : فقه اللغة ٢/٥٧٩ ، وابن سيدة : المحكم ١/٢٤١ ، وابن سنان : سر الفصاحة صـ ١٧٣ ، والنيسابوري : غرائب القرآن ١٢/١٠٨ ، والفخر الرازي : مفاتيح الغيب ٣١/ ٢٠٩ ، والسيوطي : الإتقان ٣/٣٤٢ ، والمعترك ١/٣٦ ، وسيد قطب : التصوير الفني للقرآن صـ ٨٩

للدلالة عليه في " ودعك " ، ومنهم من قال : حُذف مراعاة للفاصلة، وكذلك فيما بعدها من الفواصل (فآوى – فهدى – فأغنى) .[1]

وترى الدكتورة **عائشة عبد الرحمن** رأيًا وجيهًا في تعليل هذا الحذف نميل إليه ، إذ ليس من المقبول مطلقاً أن يقوم البيان القرآني على اعتبار لفظي محض . وإنما الحذف جاء لمقتضى معنوي بلاغي ، يقويه الأداء اللفظي دون أن يكون الملحظ الشكلي هو الأصل ، ولو كان البيان القرآني يتعلق بمثل هذا ـ لما عدل عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحى : ﴿ **فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١** ﴾ وليس في السورة كلها " ثاء" فاصلة بل ليس فيها حرف " ثاء " على الإطلاق ولم يقل ـ الحق سبحانه ـ فخبِّر (بدلاً من فحدث) لتتفق الفواصل أو لتتشاكل رؤوس الآيات على مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون به .

والذي نراه ونطمئن إليه في هذا المقام والذي يفرضه السياق أن الحذف هنا تقتضيه حساسية معنوية مرهفة بالغة الدقة في اللطف والإيناس هي تحاشي خطابه تعالى لرسوله وحبيبه المصطفي ﷺ في مقام الإيناس بصريح القول " وما قلاك" لما في القلى من حسن الطرد والإبعاد وشدة البغض أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك ، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل اللقاء " .[2]

أما قول الفراء وغيره بأن الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف فذلك اعتبار نحوى يتعلق باللفظ ، وإنما ما بيناه يتعلق بالمعنى وهو لب المقصود ، والله أعلم .

ومن أمثلة حذف المفعول في الفاصلة قوله تعالى : ﴿ **قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ** ﴾ (الشعراء ٧٢ ـ ٧٣) فقد ذكر مفعول النفع ، ولم يذكر مفعول الضر . وقد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآي ، ولا شك أنه لو ذكر المفعول به لم

---

١ معاني القرآن ٣/٢٧٣ ، وغرائب القرآن ٣٠/١٠٨

٢ انظر التفسير البياني ١/٣٥ ، ٣٦ ، والإعجاز البياني ٢٦٨ ، ٢٦٩

تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي ، ولكن الحذف اقتضاه المعنى أيضًا فقد ذكر مفعول النفع فقال (ينفعونكم) لأنهم يريدون النفع لأنفسهم ، أطلق الضر لسببين :

الأول : أن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه .

والآخر : إن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص والضر موضع إطلاق ، فخص النفع وأطلق الضر ، والمعنى أن هذه الآلهة لا تتمكن من الأضرار بعدوكم كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها ، ولو ذكر المفعول به فقال (أو يضرونكم) لما أفاد هذين المعنيين - فانظر كيف أن العدول إلى الإطلاق في الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة .[1]

ومن شواهد الحذف لأجل الفاصلة حذف ياء المنقوص نحو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ (غافر ١٥) ، ﴿ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ (غافر ٣٢) وحذف ياء المضارع غير المُنجزم نحو قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (الفجر ٤) وحذف ياء الإضافة نحو قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ (القمر ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠) .

الياء المحذوفة في « التلاق » و « التناد » من أصول الكلمة ولعل سبب العدول إلى حذفها في هذين الموضعين وأمثالهما الرمز إلى أن كلاً من « يوم التلاق » و « يوم التناد » هو يوم القيامة ، وهو أمر ملكوتي أخروي غيبي ، فلما كان غيبيًا حُذفت الياء لترمز إلى ذلك .

هذا من حيث المعنى ، أما من حيث اللفظ فلأن حذف الياء سوّغ الوقوف على كل منهما بالسكون كما هو الشأن في الفواصل التي قبلها والتي بعدها .[2]

---

١ فاضل السامرائي . التعبير القرآني صـ ١٩٧

٢ مجلة منبر الإسلام صـ ١٦ من مقال للدكتور/ عبد العزيز المطعني بعنوان : خصوصيات الرسم العثماني .

أما بالنسبة إلى قوله تعالى : " **والليل إذا يسر** " فالسر هنا هو أن السُرى هو السرى الملكوتي الذي يُستدل عليه بآخره من جهة الانقضاء أو بمسير النجوم .[1]

قال سيبويه : " وجميع مالا يحذف في الكلام ، وما يختار فيه ألا يحذف ، يحذف في الفواصل والقوافي . فالفواصل ، قول الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ (الفجر ٤) " .[2] وتابعه الفراء فقال : " وقد قرأ القرّاء « يسري » بإثبات الياء ، « ويسر » بحذفها ، وحذفها أحب إليّ لمشاكلة رءوس الآيات ، ولأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها " .[3]

فهو يرى أن العدول إلى حذف الياء أوفق من إثباتها لمراعاة الفاصلة .

ج – في الزيادة :

أحيانًا تأتي الفاصلة وبها زيادة حرف المد نحو : " الظنونا ، والرسولا ، والسبيلا " ففي قوله تعالى : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب ١٠) و ﴿ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ (الأحزاب ٦٦) و ﴿ فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (الأحزاب٦٧) يقول الفراء في تعليل هذه الزيادة:

" يوقف عليهن بالألف ؛ لأنها مثبتة فيهن ، وهى مع آيات بالألف وكان حمزة والأعمش يقفان على هؤلاء الأحرف بغير ألف فيهن وأهل الحجاز يقفون بالألف ، وذلك أحب إليهم لاتباع المصحف ، ولو وصلت بالألف لكان صوابًا ؛ لأن العرب تفعل ذلك ، وقد قرأ بعضهم بالألف في الوصل والقطع " .[4]

ويرى بعض الباحثين المعاصرين أن فمن المقرر في القواعد أن الألف تنوب عن التنوين الذي بعد الفتحة عند الوقف ، كما سبق

---

١ البرهان ٤٠٣/١
٢ الكتاب ١٨٥/٤
٣ معاني القرآن ٢٦٠/٣
٤ معاني القرآن للفراء ٣٥٠/٢ . يقصد بالقطع : " الوقف " .

في قوله تعالى : ﴿ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (النساء ٤٦ ، ١٥٥) ، ولأن التنوين الذي نابت عنه الألف لا يجتمع مع أداة التعريف «ال» خلت النصوص العربية من الجمع بينهما حتى في قوافي الشعر ، لأن الألف التي تجامع «ال» في قوافي الشعر ألف إطلاق وليست ألف إبدال أو تعويض . ومع ذلك تأتي ألف الإبدال في القرآن في كلمات اقترنت بأداة التعريف ، وكانت الألف في هذه الحالة لرعاية الفاصلة، كما في الآيات السابقة من سورة الأحزاب .[1]

ولا يكفي القول بأن الزيادة هنا لرعاية الفاصلة - وإن كنا لا ننكر ذلك - ولكننا نتفق مع رأي باحث آخر في أن هذا العدول يتعلق بالأداء الصوتي للكلمة فيقول : " وقد يخيل إليك وأنت تسمع هذه الجملة : «وتظنون بالله الظنونا» إذا أحسنت الإصغاء النفسي والوجداني إليها ، أنك تسمع هذه الهمهمات ، وهذه الوسوسات ، التي تهمس بها نفوسهم في خفاء ، وكأن هذه الألف في «الظنونا» تؤذن بإطلاق العنان للخيال الفزع والخواطر الشُّرَّد حين زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر " .[2]

ثم إننا نلحظ في الآية نوعًا آخر من العدول حيث جيء بالفعل المضارع «تظنون» عدولاً عن الماضي «ظننتم» لأنه معطوف على " زاغت الأبصار " ، ولأن الحدث قد انتهى زمانه والمقام مقام تذكير بالنعمة ، والسر في ذلك - كما يقول البلاغيون - أن المضارع يدل على استحضار الصورة ، أي أن صيغته تحمل الحديث من قلب الزمان الغابر ؛ لتضعه أمام الحاضر الراهن في جلاء ووضوح ، ولهذا تراهم يؤثرون صيغة المضارع عند ذكر الحدث الأهم ، والظن هنا أهم الأحداث في قصتنا ؛ لأن القضية قضية ابتلاء وتمحيص ، ابتلاء إيمان وتمحيص عقيدة ، لذلك كان حديث القلوب وهمس النفوس وحركة الشعور وكل ما هو داخل الكيان النفسي وينتمي إليه من أهم ما يعنينا في هذا الموقف ، ومن أجل ذلك خالف القرآن نسق الأفعال وجاء بهذا الفعل مضارعًا ومؤكدًا بمصدره ومجموعًا على خلاف المألوف في المصادر، وذلك ليكشف أتمّ كشف ، ويتصور أوضح تصوير مُسْتَسَرَّ نفوس هذه

---

[1] البيان في روائع القرآن صـ ٢٨٣ ، ٢٨٤

[2] أسرار التعبير القرآني صـ ١٠٢

الجماعة في هذا الموقف الصعب ، والمضارع أيضًا يدل على الاستمرار والتجدد ، فكأن الظن هنا حدث يتتابع وقوعه وتتوالى صوره .

وثمة ملحظ آخر في الآية إذ تصوّر ما بداخل النفس ، وتصف الخواطر والهواجس والظنون ، وهذه قصوى مراحل الابتلاء بالنسبة للمؤمنين في هذه الواقعة ، و " الظن " مصدر يُطلق على القليل والكثير ، ولكنه جُمع هنا للإشارة إلى كثرة الهواجس والظنون وتعدد ضروبها وأنواعها ، وقد ورد هذا في كلامهم ، أنشد أبو عمرو في كتاب الألحان (من الوافر) :

إذا الجوزاء رادفت الثريا ظنت بآل فاطمة الظنونا

هذا هو الرأي الذي نستريح إليه من خلال تدبر السياق وفهم المعنى ، ونحن نعلم أن الصياغة لها مستويان يختلفان باختلاف السياق ، **المستوى الأول** : هو المستوى اللغوي الذي ترد فيه الصياغة حسب مقتضيات الإيصال فحسب ، أما **المستوى الثاني** : فهو الذي عبر عنه بالوظيفة البيانية واللغة الأدبية لاختصاصه بصياغة أخرى تتميز بطبيعتها الجمالية ، وما تحويه من مفردات ركبت على غير المألوف في المستوى الأول الذي تأتي فيه الصياغة، وما يتفق دون قصد .

ومن **الزيادة** أيضًا **إلحاق هاء السكت** في آخر الكلمات المنتهية بالياء المفتوحة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحاقة ١٩ – ٢٠) و ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ (الحاقة ٢٥ ـ ٢٩) يقول ابن قتيبة : " وإنما يجوز في رءوس الآي زيادة هاء للسكت ، كقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾ (القارعة ١٠) أو « ألف » كقوله : ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (الأحزاب ١٠)

... لتستوي رءوس الآي على مذاهب العرب في الكلام " .[1]

والرأي عندي أن السبب في هذا العدول المتمثل في زيادة الهاء لا يتضح إلا إذا تأملنا سياق الآيات ، فالآيات تتحدث عمن يؤتى كتابه بشماله يوم القيامة ، وما يعتريه حينئذ من ندم وحسرة ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الحاقة ٢٥ - ٢٩) إنها وقفة مع نفسه تنبئ عن حسرة مديدة ، ولهجة بائسة ، وتنهيد وتهديج ، والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية ... وهنا يراد طبع موقف الحسرة، وإيحاء الفجيعة من وراء ذلك المشهد الحسير ... ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه ويكنزه ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ فجاء السكت على هذه الهاء في "ماليه" يصور لحظة الندم على ما فعل به حب المال من الأعراض والتقصير ، مصحوبًا بتلك الهاء الحلقية الساكنة ، مع ما يتبعها من تفريغ التأوه الصادر من أعماق القلب ، يؤدي رنة حزينة حسيرة مديدة في نهاية الفاصلة الساكنة ، ويزيد من ذلك الياء قبلها بعد المد بالألف في تحزن وتحسر ، ولا شك أنها بصوتها ترسم جزءًا من ظلال الموقف الموحي بالحسرة والأسى .

هذا ما يكشف عنه زيادة هاء السكت وما يوحي به من ظلال المشهد ، ولكن لا يجب الوقف على " ماليه " رغم أنها رأس آية لاتصال المعنى بما بعدها، فقوله " هلك عني سلطانيه " من تمام الكلام .

ونخلص من هذا أن السكت على " ماليه " أفاد فائدتين : الأولى: لفظية ، وهي الرنة الحزينة المديدة في نهاية الفاصلة الساكنة لينسجم الأداء الصوتي مع باقي الفواصل السابقة واللاحقة (كتابيه ، حسابيه، القاضية ، ماليه ، سلطانيه) ، والثانية : معنوية وهي تجسيد لحظة الندم وتجلية موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة وفداحة المصير .

---

١ تفسير غريب القرآن صـ ٤٤٠

د ـ الاعتراض :

ومما يتصل بالنمط السابق من أنماط العدول « **الاعتراض** ».

الأصل في الجملة أن تتصل أجزاؤها ، لتتضح فيها الرتبة والاختصاص والعلاقات ، ولكن الأغراض الأسلوبية ربما أباحت العدول عن هذا الأصل بواسطة اعتراض مجرى الكلام بجملة يتطلبها الموقف ، تسمى الجملة المعترضة ، ولا يكون الاعتراض إلا بجملة ، وهي لكونها معترضة غريبة عن سياق الكلام ولا ينسب إليها محل من الإعراب ، لكونها لم تحُل محلّ أحد مفردات السياق الأصلي [1] **إنما يؤتى بها لوظيفة بلاغية مهمة** ، هي المبادرة بإبلاغ السامع معنى ، لولا إبلاغه إياه في حينه ، لورد على الكلام بدونه ما لا يرد عليه بوجوده . وهذا ما اشترطه **ابن منقذ** في الجملة المعترضة [2] .

والاعتراض في كلام العرب " كثير قد جاء في القرآن ، وفصيح الشعر ومنثور الكلام ، وهو جارٍ عند العرب مجرى التأكيد، فلذلك لا يُستنكر عندهم أن يُعترض به بين الفعل وفاعله ، والمبتدأ وخبره ، وغير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه بغيره إلا شاذا أو متأولاً" [3] .

ومن شواهده في القرآن قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ (وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ) وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾ (آل عمران ٣٦) وفائدة الاعتراض التنبيه إلى سبق علم الله بذلك .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ (وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ) وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ

---

١ البيان في روائع القرآن صـ ٣٨٦

٢ البديع في نقد الشعر صـ ١٣٠

٣ الخصائص ٣٣٥/١

مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران ١٣٥) والاعتراض للمبادرة ببعث المسرة والطمأنينة إلى قلوب المستغفرين التائبين .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ (لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ) أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (آل عمران ١٢٧ ـ ١٢٨) جاء الاعتراض ليدل على أن النصر أو الهزيمة من عند الله لا من عند النبي ﷺ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ (الواقعة ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧)
قال الزمخشري : " وقوله : **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ، اعتراض في اعتراض ؛ لأنه اعترض به بين المقسَم به ، وهو **مواقع النجوم** ، والمقسَم عليه ، وهو قوله : **إنه لقرآن كريم** ، واعترض بقوله : **لو تعلمون** بين الموصوف وصفته " .[1] وقد أفاد الاعتراض الأول لفت الأنظار إلى أهمية القسم ، كما أفاد الاعتراض الثاني التهويل من شأن القسم .

ومن بلاغة النظم في الاعتراض المناسبة بين المقسَم به وهو النجوم ، وبين المقسَم عليه وهو القرآن ، لأن الله قد جعل النجوم ليهتدي الناس بها في ظلمات البر والبحر ، كما جعل القرآن ليهتدي به الناس في ظلمات الجهل والضلال ، فتلك ظلمات حسية ، وهذه ظلمات معنوية ، فجاء القسم هنا جامعًا بين الهدايتين (الحسية للنجوم، والمعنوية للقرآن) فهذا وجه المناسبة والله أعلم .

---
١ الكشاف ٥٨/٤ ، ٥٩

ثانـي عشر : العدول إلى الألفاظ الفرائد :

وأعنـي بـ « الفرائد » : اللفظـة الفريدة التـي لـم تتكرر فـي القرآن كلـه ، وإنمـا أتت مرة واحدة في موضعها الذي وردت فيه ، لما لها من دلالة خاصة ، لـو أدرت اللغـة مـا وجدت لفظـة تصلح فـي موضعها ، وذلك شـأن كل لفظةٍ في القرآن؛ لأن كلمـات القرآن معتبـرة بأصوات حروفها وحركاتها ومواقعها مـن الدلالة المعنوية.

ومن شواهده كلمة « **ضيزى** » في قوله تعالى : ﴿ **تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ** ﴾

(النجم ٢٢) ولـم يقل جائـرة . لقد عدها ابن الأثير (ضيزى) من الألفاظ الغريبة[1] التـي حسنت بحسن موقعها ، ثم علل ذلك بأنهـا جـاءت علـى الحرف المسجوع الـذي جـاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسد مسدها ، وقد يكون هناك لفظـة آلف منها مثل جائرة أو ظالمـة ، ولكنها في هذا الموضـع لا ترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة ؛ لأنـها تكون خارجـة عن حرف السورة ، فلو قلنا : ألكم الذكر ولـه الأنثـى تلك إذاً قسمة ظالمـة ، لـم يكن النظم كالنظم الأول ، وصـار الكـلام كالشـيء المعْوَز الـذي يحتاج إلـى تمام ، وهذا لا يخفي على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام "[2] .

وهذا كلام صائب مسلم به بحكم السمع والذوق معا ، ولكن ما يؤخذ على ابـن الأثيـر هو مـا أخـذناه علـى غيـره ، مـن أنـه أرجـع الحسـن إلـى شـيء لفظـي محـض ، وهـو مـراعاة الـتقارب فـي مقاطـع الفواصـل ، ليـتم لهـا الائـتلاف والانسجام الإيقاعـي . ولكـن **الرافعي** نظر إليها نظرة عميقة شاملة تناولتها من ناحيتيها فـي إفاضـة وحسـن عرض حيث قال : "وفي القرآن لفظة هى أغرب ما فيه ، ومـا حسنت فـي كـلام قط إلا فـي موضـعها ، وهـى كلمـة " ضيزى " ومع ذلك فـإن حسنها فـي نظـم الكـلام من أغرب الحسـن وأعجبه ، ولـو أدرت اللغـة عليها مـا صلح لهذا الموضـع غيرها[3] فإن السورة التي هي منها – وهى سورة - النجم - مفصلة كلها على حرف (الياء) فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل .

ثـم هـي فـي معرض الإنكـار علـى العرب ، إذ وردت فـي ذكر الأصـنام ، وزعمهم فـي قسـمة الأولاد ، فـإنهم جعلـوا الملائكـة والأصـنام بنـات لله مع وأدهم

---

١ يُنظر: في غريب القرآن لابن عزيز صـ ٣١٥. تح/ محمد أديب جمران. دار ابن قتيبة دمشق. ١٩٩٥.

٢ المثل السائر ١/١٧٦-١٧٨

٣ يبدو أن الرافعي متأثر في ذلك بابن عطية (ت٥٤٢هـ) في « المحرر الوجيز » حيث يقول : " **لو نُـزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم توجد** " (المحرر الوجيز ١/٥٧)

البنات ، فقال تعالى - ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (النجم ٢١ ـ ٢٢) فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملائمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها، وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها ، الإنكار في الأولى، والتهكم في الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل ، ووصف حال المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدين فيها، وجمعت – إلى ذلك – غرابة الإنكار لغرابتها اللفظية ، والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام ، وله نظائر في لغتهم ، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها ، ولا يكون حسنها – على غرابتها – إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت إليه بلفظها وهيئة منطقها ، فكأن في تأليف حروفها معنى حسيا ، وفي تأليف أصواتها معنى مثله في النفس .

ثم يقول : وإن تعجب فعاجب نظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها ، إذ هى مقطعان : أحدهما مدٌّ ثقيل ، والآخر مد خفيف ، وقد جاءت عقب غنتين في " إذاً " و " قسمةٌ " وإحداهما خفيفة حادة ، والأخرى ثقيلة متفشية ، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبة صوتية لتقطيع الموسيقى ، وهذا معنى رابع للثلاثة التي عددناها آنفا ، أما خامس هذه المعاني ، فهو أن الكلمة التي جمعت المعاني الأربعة إنما هى أربعة أحرف أيضا " .[١]

الرافعي يلفتنا إلى الأداء الدقيق لكلمة " ضيزى " في هذا التركيب البياني المعجز، فهي متناسقة مع غيرها من الفواصل مما يبرز جمال الإيقاع الذي انتظم فواصل السورة كلها عدا بعض آيات في آخرها . ورغم ثقلها في ذاتها فإن انسجامها مع اللفظتين السابقتين عليها جعلها سهلة في نطقها إذ أعقبت غنتين في " إذا " و" قسمة " فألفت مع غيرها مجاورة صوتية لتقطيع موسيقى . هذا إلى ما أوحت به غرابة اللفظة إلى غرابة القسمة فأتت مناسبة لجو الكراهة والإنكار الذي صورته الآية في معرض إنكارها على المشركين قسمتهم الجائرة.

ويرى الدكتور " تمام حسان " ملحظين آخرين – غير رعاية الفاصلة – أحدهما : الإيحاء بما في " الضاد " من تفخيم بأن الجور في هذه القسمة لا يزيد

---

١ تاريخ آداب العرب ٢/٢٣٠-٢٣١

عليه . وثانيهما : ما في " ضيزى " - وهى للتفضيل - من زيادة في معناها على معنى " جائرة " التي هى صفة مشبهة .[1]

فلله در البيان الأعلى يستعمل الكلمة في موضعها فتكون أمس رحما بالمعنى وأوضح في الدلالة عليه وأشد إيحاء به .

ومن شواهد ذلك أيضًا كلمة « **الحُطَمَة** » في قوله تعالى : ﴿ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ﴾ (الهمزة ٤) ولم يقل " جهنم " أو " النار " .

بداية يجب أن نفهم معنى « النبذ » وهو إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ، ولذلك يقال : " **نبذته نبذ النعل الخَلِق** "[2] ، ولك أن تتصور ما في هذا التعبير من إيحاء بكل معاني الحقارة والذلة والهوان ، هذا فضلاً عن توكيد الفعل توكيدًا واجبًا باللام والنون .

والحطمة هى اسم من أسماء النار ، كما ذُكر من أسمائها في مواضع أخرى « جهنم » ، و « سقر » ، و « لظى » ... وهي من شأنها أن تحطم العظام ، وتأكل اللحم (وفي ذلك إشارة إلى غاية تعذيب الهمزة اللمزة) ، ويقال للرجل الأكول "حطمة" ووزنها فُعَلَة كَهُمَزة ولُمَزة .. كأنه قيل له كنت همزة لمزة ، فقابلناك بالحطمة ، وأيضا في الحطمة معنى الكسر والتحطيم ، والهمّاز اللمَّاز يكسِّر أخلاق الناس بالاغتياب ، ويحطم أعراضهم بالعيب ، أو يأكل لحومهم كما يأكل الرجل الأكول[3] ، كما أن سهولة الحركات في (الهمزة واللمزة والحطمة) توحي بسهولة ذلك عليه ، فهو يأتيه كثيرًا ولا يبالي ، كالأكول الشره الذي يأكل دون مراعاة الآخرين . والقرآن يغنينا عن تأويلٍ بما تولى من بيان الحطمة في الآيات بعدها ، وتبدأ بالسؤال " وما أدراك ما الحطمة؟ " ويأتي الجواب ببيان مناط الرهبة والهول في قوله تعالى : ﴿ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴾ (الهمزة ٦،٧) وباستقراء الاستعمال القرآني

---

١ البيان في روائع القرآن ٢٨٨
٢ مفردات الراغب صـ ٤٨٠
٣ تفسير النيسابورى على هامش الطبري ١٦٢/٣٠ ، ١٦٣ (بتصرف) ، ويُنظر غريب القرآن لابن عزير صـ ٢٠١ .

للنار نلحظ غلبة مجيئها لنار الجحيم في الآخرة [1] ، ومع كثرة هذا الاستعمال لم تأت مضافة إلى الله تعالى إلا في " الهمزة " ، فشهد ذلك بفداحة النُّكْر لفتنة المال ..." [2] .

ومن شواهد ذلك أيضًا كلمة « دحاها » في قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (النازعات ٣٠) . دحاها : أي جعلها كالدّحية (البيضة) وهو ما يوافق أحدث الآراء الفلكية عن شكل الأرض ... ولفظة « دحا » تعني أيضًا البسط ... وهي اللفظة العربية الوحيدة التي تشتمل على البسط والتكوير في ذات الوقت ، فتكون أدل الألفاظ على الأرض المبسوطة في الظاهر المكوّرة في الحقيقة ، وهذا منتهى الإحكام والخفاء في اختيار اللفظ الدقيق المبين [3] .

ومن شواهد ذلك أيضًا كلمة « تُدلوا » في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة ١٨٨) فكلمة « تُدلوا » مأخوذة من الإدلاء ، والإدلاء في الأصل : إرسال الدلو في البئر ، ثم جعل كل إلقاء أو دفع لقول أو فعل إدلاءً . يُقال : أدلى بحجته أي أرسلها ، والمراد بالإدلاء هنا الدفع إلى الحاكم بطريق الرشوة ، والرشوة من « الرِّشاء » ، وهو الحبل الذي يُعلّق فيه الدلو ، وتدلوا بالأيدي إلى الحكام ، مع أن الحاكم هو الأعلى ، والمحكومين هم الأسفل ... والسر واضح ... إن الحاكم إذا قبل الرشوة أصبح في الأسفل ، وأصبحت اليد التي تعطي هي الأعلى ، ومن هنا كانت اللفظة المحكمة الدقيقة «تُدلوا» هي أشد تعبيرًا وتصويرًا للمعنى المقصود ... ويستحيل عليك أن تتصور لفظة أخرى أدق وأحكم للمناسبة [4] .

---

١ وردت نحو مائة وعشرين مرة في مقابل خمسة وعشرين مرة للنار في الدنيا حقيقة أو مجازًا .
٢ التفسير البياني ٢/١٧٥-١٧٧ (بتصرف)
٣ د/ مصطفى محمود . القرآن صـ ٢٥٥
٤ مصطفى محمود . القرآن صـ ٢٥٦

ومن ذلك أيضـًا كلمـة « **التَّهۡلُكَةِ** » في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ** ﴾ (البقرة ١٩٥) فالتهلكة على وزن « تَـفۡـعُـلَـة » ولا نظير لها في اللغة العربية ، فهي كلمة فريدة ، لا يوجد على وزن تفعلة سواها.

قال اليزيدي : " **التهلكة** من نوادر المصادر ليست مما يجري على القياس " .[١]

والتهلكة : ما يؤدي إلى الهلاك ، والهلاك خروج الشيء عن حال إصلاحه بحيث لا يُدرى أين يذهب ، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه . وبناءً على هذا المعنى اللغوي نفهم أن قوله تعالى : " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " يكشف لنا بعضـًا من روائع الأداء البياني في القرآن ، ففي الجملة الواحدة تعطيك الشيء ومقابل الشيء ، وهذا أمر لا نجده في أساليب البشر ، ومعنى " أنفقوا في سبيل الله " أي : في الجهاد ، ويقول بعدها : " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " فكأنه ربط بين الإنفاق في سبيل الله – الجهاد – بالإلقاء إلى التهلكة ، لأن الامتناع عن الإنفاق يؤدي إلى التهلكة . بمعنى أن الإنفاق الذي هو إخراج المال إلى الغير الذي يؤدي لك مهمةً تفيد الإعدادَ لسبيل الله كصناعة الأسلحة أو الإمدادات التموينية أو تجهيز مبانٍ وحصونٍ ، هذه الأوجه إنفاق المال .

وكلمة « تلقوا » تفيد أن هناك شيئـًا عاليًا وشيئـًا أسفل ، فكأن الله يقول : لا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة ... وهل يفعل أحد ذلك بنفسه ؟ ! لا . إنما اليد المغلولة عن الإنفاق في سبيل الله هي التي تلقي بصاحبها إلى التهلكة ، لأنه إن امتنع عن الإنفاق في سبيل الله والإعداد للجهاد ، والأخذ بالأسباب لمواجهة العدو ، اجترأ العدو عليه . وما دام اجترأ العدو عليه فسوف يفتنه في دينه ، وإذا فتنه في دينه ، فقد هلك .

إذن فالاستعداد للحرب أنفى للحرب ، بمعنى أن العدو حين يراك قويـًا يهابك ويتراجع عن قتالك . هذا هو المعنى الأول ... أما المعنى الثاني : لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بأن تُـقبلوا على القتال بلا داعٍ أو بلا إعداد كافٍ .[٢]

---

١ الفتوحات الإلهية ٢٣٢/١

٢ تفسير الشعراوي ٢/ ٨٣١ ، ويُنظر : التحرير والتنوير ٢١٤/١

وقد أشار عبد القاهر إلى مزايا القرآن التي أعجزت العرب في نظمه ، وخصائصه التي صادفوها في سياق لفظه ... فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة يُنكر شأنها ، أو يُرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى أو أخلق ، بل وجدوا اتساقًا بهر العقول ، وأعجز الجمهور .[1]

والمتأمل في هذا النص يجد إشارة يمكن أن تقابل في النقد الحديث ما يُسمى بمحور الاختيار أو الاستبدال ، وهو محور يتقاطع مع محور التركيب أو التوزيع فينتج من ذلك ما يسمى **الأسلوب** .[2]

أي أن محور الاختيار في القرآن محور حاز من درجات الجمال والكمال أتمّها وهو أمر لا يتفق لغيره من الكلام .

ثالث عشر : العدول في مرسوم خط القرآن :

من الخصوصيات التي اختُصّ بها النص القرآني « مرسوم خطه » .

وإن المتأمل في رسم كلمات المصحف يرى كلماتٍ كُتبت برسم معين في مواضع تُخالف رسمها في مواضع أخرى ، بحسب اختلاف أحوال معاني الكلمات ، **كحذف الياء** من « يسري » أو **حذف الواو** من « يدعو » أو **زيادة الياء** في « بأييكم » أو **زيادة الألف** في « لِشَاىْءٍ » أو **اختلاف الحرف بين السين والصاد** كما في « بسطة وبصطة » أو **اختلاف هيئة التاء** بقبضها في مواضع وبسطها في مواضع أخرى كما في نحو « رحمة ورحمت » و « كلمة و كلمت » و « قرة وقرت » أو **فصل** « **إن** » **عن** « **ما** » **في مواضع ووصلها بها في مواضع** ، إلى غير ذلك من صور العدول في مرسوم الخط القرآني .

هذه المخالفة تُعد نوعًا من العدول في الرسم ، ولا شك أن ذلك يتعلق بسر من أسرار إعجاز القرآن في ألفاظه ومعانيه التي اختص الله بها كتابه العزيز ، دون سائر الكتب السماوية . ومن اللافت أن مرسوم خط القرآن لا يخضع لقواعد محددة ، ولا أصول مقنّنة تضبطه مما يجعل العدول بارزًا في رسم بعض الكلمات ، وكونه عدولاً فلا يخلو من طرافة أو مغزى ، ربما نهتدي – مع التدبر والتأمل – إلى إدراكه ، وربما لا نهتدي فنقول : سبحانك ربي هل كنت إلا بشرًا قَصُورا .

---

[1] دلائل الإعجاز صـ ٣٩

[2] ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي صـ ٣٨١

وإذا كان هناك فريق يرى أن الالتزام بالخط العثماني فيه مشقة في قراءته وفيه إلباس على البعض .[1] فالرأي عندي أن القرآن يُؤخذ بالتلقي ، وما دام يؤخذ بالتلقي فلا مجال للقول بالإلباس .

ومع طول مصاحبتنا للمصحف الشريف تلاوةً ودراسةً تبين لنا أن كثيرًا من الكلمات حدث في كتابتها عدول اتضح لنا في رسمها ، فرحنا نلتمس التوجيه المناسب لهذا العدول في مرسوم الخط – وذلك يُعد من الجديد في هذا البحث – .

ونذكر فيما يلي بعض الشواهد لهذا النمط – من أنماط العدول – المتعدد الصور المختلف الهيئات .

أ- **المخالفةُ بين إثباتِ الألف أو حذفها من كلمة** « اسم » ، حيث نلحظ أنها إذا أضيفت إلى لفظ الجلالة ، نحو : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ (الفاتحة ١ ، هود ٤١ ، النمل ٣٠) حذفت الألف ، أما إذا أضيفت لغير لفظ الجلالة ثبتت الألف ، نحو : ﴿ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ (الواقعة ٧٤ ، ٩٦ ، الحاقة ٥٢ ، العلق ١)

ولعل السر في هذا العدول ، أي حذف الألف في : " بسم الله " التنبيه على عُلوِّه في أول رتبة الأسماء وانفراده ، فهو علم على الذات الإلهية المقدسة ، ولهذا لم يَتَسَمَّ به غير الله ، بخلاف غيره من أسمائه ، فلهذا ظهرت الألف معها تنبيها على ظهور التسمية في الوجود ، وحذفت الألف التي قبل الهاء من اسم الله ، وأظهرت التي مع اللام من أوله ، دلالة على أنه الظاهر من جهة التعريف والبيان ، الباطن من جهة الإدراك والعيان ، أما إذا أضيفت لغير الله ثبتت ، نحو " باسم ربك " .[2] لأن كلمة ربك تأتي مشتركة بين « الله » عز اسمه وبين خلقه ، فمن ذلك مثلاً : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف ٤٢) يعني العزيز أو الملك ، وهذا الاسم الجليل لا يُعرف له اشتقاق من فعل ، كما أن الألف واللام فيه لازمة ، وجميع أسماء الله الحسنى إذا أسقط منها حرف ذهبت دلالته على « الله » ولم يعد له معنى ، أما اسم « الله » خمسة حروف ، إذا أسقط منها حرف أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة ما بقي من الاسم يدل عليه سبحانه .

---

١ الزركشي . البرهان ٣٧٩/١ ، والزرقاني . مناهل العرفان ٣٧٨/١
٢ الزركشي . البرهان ٣٩٠/١

وحذف الألف من " بسم الله " يعد لونًا من الإيجاز بالحذف ، وهو حذف لا يؤثر في النطق بالبسملة في حين أن له دلالة قيمة إذ يدل حذفه على بناء الصلة بالله تعالى بأقصر طريق وأخصره ، وهو صراط الله المستقيم .[1]

ب- **المخالفة بين إثبات الألف وحذفها في كلمة « كتاب »** (مُعرفة أو مُنكّرة) ، حيث وردت بدون الألف في المصحف كله عدا في أربعة مواضع جاءت فيها بالألف .[2]

قال **الزركشي** : " وكذلك كل ما في القرآن من « الكتاب » أو «كتاب» فبغير ألف ؛ إلا في أربعة مواضع بأوصاف خصصته من الكتاب الكلي :

في **الرعد** : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ (الرعد ٣٨) ، فإن هذا " كتاب الآجال" فهو أخص من الكتاب المطلق ، أو المضاف إلى الله .

وفي **الحِجْر** : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (الحجر ٤) ، فإن هذا " كتاب إهلاك القرى " ، وهو أخص من كتاب الآجال.

وفي **الكهف** : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ (الكهف ٢٧) ، فإن هذا أخص من " الكتاب " الذي في قوله : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (العنكبوت ٤٥) ، لأنه أطلق هذا ، وقيد ذلك بالإضافة إلى الاسم المضاف إلى معنى الوجود ، والأخص أظهر تنزيلا .

وفي **النمل** : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (النمل ١) ، هذا " الكتاب" جاء تابعا للقرآن ، والقرآن جاء تابعا للكتاب ، كما

---

١ تحليل الرسم القرآني . دراسة عرضها د/ أحمد إبراهيم البعثي . أهرام الجمعة ٢٠٠٠/١٢/١٠ .
٢ راجع في ذلك البرهان في علوم القرآن ٣٨٩/١ ، ٣٩٠

جـاء فـي الحِجْـر : ﴿ تِلْكَ ءَايَتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾ (الحجر ١) ، فما فـي « النمل » لـه خصوص تنزيل مع الكتاب الكلي ، فهو تفصيل الكتاب الكلي بجوامع كليته .

هكذا وقفنا على شيء من الأسرار المُرادة من حذف « الألف » في « الكتاب » أو « كتاب » وهذا الحذف أو الإثبات يجريان على منهج حكيم له دلالته ، وحاشا لله أن يكون في هذه الخصوصيات نوع من السهو أو الجهل ، لأن كتاب الله منزه عن كل نقص أو عيب في مفرداته وجُمَله وتراكيبه ومعانيه .

ج- **المخالفة بين إثبات المد وحذفه** . تأمل في سورة «الكافرون» ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ **تأمّل** قوله : " لا أعبد ما تعبدون ● ولا أنتم عابدون ما أعبد " تر إيضاح ما يلي :

١) تـر المدّ على « مَآ أَعْبُدُ » (في المرتين) ، ولا تر ذلك المدّ في «مَا تَعْبُدُونَ » ، وفي ذلك إشارة إلى تفخيم وتعظيم ما يعبده النبي ﷺ وهو الله سبحانه ، وتحقير ما يعبده الكافرون من أصنام وحجارة.

٢) تـوحُّد الفعل « أَعْبُدُ » المسند إلى رسول الله ﷺ بنصه في المرتين ، وتغيُّره زمنًا بين المضارع والماضي المسند إلى ضمير الكافرين . ففي توحّد الأول : إشارة إلى توحد معبود النبي ﷺ وتفرده بالوحدانية ، فهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد . وفي تغير : الثاني إشارة إلى تعدد معبوداتهم وحقارتها ؛ لأن التغير جار عليها .

٣) المد على لَآ أَعۡبُدُ "لام" بعدها "ألف" يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس ، فأذن امتداد الصوت بلفظها بامتداد معناها وهو النفي الجازم الشامل للحال والاستقبال ، قطعًا لأطماعهم وبراءة من أفعالهم ، ولأن « لَآ » لا تدخل على مضارع في معنى الاستقبال .[1]

٤) العدول عن « مَن » إلى « ما » . قال الزمخشري : " فإن قلت : لما عدل عن « مَن » إلى « ما » ، قلت : لأن المراد الصفة ، كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق " .[2]

٥) العدول عن « ما عبدتُ » – في مقابلة «مَّا عَبَدتُّمۡ »– إلى « مَآ أَعۡبُدُ ». قال الزمخشري : " لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث ، وهو لم يكن يعبد الله في ذلك الوقت " .[3]

قال أحمد بن المنير : " أو يكون العدول إلى المضارع لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه " .[4]

٦) العدول عن جمع التكسير « الكفار » إلى جمع السلامة " ٱلۡكَٰفِرُونَ " لمراعاة الفاصلة وانسجام نهايات الآيات .

يقول الكرماني : " قوله : لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ في تكراره أقوال جمة ، ومعان كثيرة ... هذا التكرار اختصار وإيجاز ، وهو إعجاز ؛ لأن الله نفى عن نبيه عبادة الأصنام في الماضي ، والحال ، والاستقبال ، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله في الأزمنة الثلاثة أيضًا ؛ فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات ، فذكر لفظ الحال ؛ لأن الحال هو الزمان الموجود ، واسم الفاعل واقع موقع

---

١ الكشاف ٣٩٢/٤
٢ الكشاف ٣٩٢/٤
٣ الكشاف ٣٩٢/٤
٤ الانتصاف من الكشاف ٣٩٢/٤

الحال ، وهو صالح للأزمنة الثلاثة ، واقتصر من الماضي على المسند إليهم ، فقال : وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ... واقتصر من المستقبل على تكرار هذه اللفظة مع المسند إليه ، فقال : وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ وكأن أسماء الفاعلين بمعنى المستقبل " .[1]

د - **المخالفة بين الفصل والوصل في مرسوم الخط القرآني** ، فمن شواهده قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ﴾ (الأنعام ١٣٤)

حيث نلحظ الفصل بين « إنّ » و « ما » في هذا الموضع فقط من القرآن عدولاً عن الوصل بينهما الذي ورد في القرآن ١٣٧ مرة[2] ، ولعل السر في هذا العدول إلى الفصل ان يلفت انتباهنا إلى أن هناك ملحظًا بلاغيًّا وراء هذا العدول . وهذا يدعونا إلى النظر إلى السياق الذي وردت فيه الآية حيث يُبيِّن أن البشر فريقان ، مهتدٍ وضال ، منهم من شرح الله صدره وأنار قلبه فاهتدى ، ومنهم من اتبع هواه واتبع الشيطان فضلّ وغوى ، فبيَّن الله تعالى أنه سيحشر الخلائق جميعًا يوم القيامة للحساب، لينال كل فريق جزاءه العادل ، فجاءت الآية تعقيبًا على ذلك الفصل بين الفريقين في موعودهم ، فناسب ذلك الفصلَ في الموعود الفصلُ في المرسوم .

وقد أشار الزركشي إلى رأي آخر فقال : " ان حرف « ما » هنا وقع على مُفصّل ، فمنه خير موعود به لأهل الخير ؛ ومنه شر موعود به لأهل الشر ؛ فمعنى « ما » مفصول في الوجود والعلم " .[3] فناسب ذلك كتابتها مفصولة .

فكأن الموصول في الوجود توصل كلماته في الخط ، كما توصل حروف الكلمة الواحدة ، والمفصول معنى في الوجود يفصل في الخط ، كما تفصل كلمة عن كلمة .

---

١ الكرماني . البرهان صـ ٣٠٧ ، وراجع : بصائر ذوي التمييز ٥٤٨/١ ، ٥٤٩
٢ راجع : برنامج قالون – الإصدار ١،٠ – رمضان ١٤٢١ هـ
٣ البرهان ٤١٧/١ ، ويُنظر : المقنع في رسم مصاحف الأمصار صـ ٧٨

ومن شواهد ذلك أيضًا جاء إدغام نون « إنْ » في لام « لم » في القرآن مرة واحدة في قوله تعالى :﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾

(هود ١٤) ، وجاءت بدون إدغام مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ

لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (القصص ٥٠) ولعلنا نتساءل عن سبب هذا العدول ، فيجيبنا الزركشي : " أظهر حرف الشرط في آية القصص لأن جوابه المترتب عليه بالفاء هو "فاعلم أنما يتبعون أهواءهم " متعلق بشيء ملكوتي ظاهر ، سُفلي ، وهو اتباعهم أهواءهم ، وأخفى في آية هود ، لأن جوابه المترتب عليه بالفاء " فاعلموا أنما أنزل بعلم الله " هو علم متعلق بشيء ملكوتي خفي ، علوي ، وهو إنزال القرآن بالعلم والتوحيد " .[١]

هـ – المخالفة بين « يبسط » و « يبصط » ، حيث نلحظ في قوله تعالى :
﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ورد الفعل « يبسط » بالسين وتكرر ذلك تسع

مرات في تسعة مواضع[٢] ، وورد بالصاد « يبصط » مرة واحدة في البقرة ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة ٢٤٥) . علل

الزركشي لهذا العدول بقوله : « البسط » بالسين يشير إلى السعة الجزئية ، كذلك علة التقييد المشار إليها بقوله : " لمن يشاء " ، أما « البصط » بالصاد فيشير إلى السعة الكلية بدليل عُلوّ معنى الإطلاق وعُلوّ الصاد مع الإطباق والتفخيم .[٣]

هذا فضلاً عن دِلالة التقابل على التنويع والتعدد تقريرًا لشموله على سبيل التفصيل إرضاءً لطمأنينة النفس بالإشارة إلى مشيئة الله المبنية على الحكم والمصالح ، وأنه هو المتصرّف في شئون الخلق جميعًا .

---

١ البرهان ٤٢٧/١ ، ويُنظر : المقنع في رسم مصاحف الأمصار صـ ٧٥ ، وما بعدها
٢ راجع : برنامج قالون – الإصدار ١,٠ – رمضان ١٤٢١ هـ ، وانظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – مادة (ب س ط) .
٣ البرهان ٤٢٩/١ ، ٤٣٠ (بتصرف)

٦- إن الأسلوب العدولي لاسيما في النص القرآني من الأساليب التي تتسع فيها الاحتمالات وتتنوع الأنماط ، والاتساع والتنوّع يرجعان إلى طبيعة التفكير والتأمل ، وما يصحب ذلك من تنوع زوايا النظر ؛ إذ ليس من المعقول أن ينكشف المعنى في الأسلوب العدولي لكل متأمل بصورة واحدة لا تتغير .

٧- إن تأمل العدول في حاجة من صاحبه إلى خبرة واسعة لإدراك التوفيق بين الصيغ المتغايرة ، أو الأساليب الرفيعة ، أو البِنَى المتغيرة بالزيادة أو الحذف ، أو التقديم والتأخير ، أو التعريف والتنكير ، أو مراعاة المناسبة ، أو إيثار لفظة معينة على غيرها من مرادفاتها ، أو مخالفة مرسوم الخط القرآني إلى غير ذلك من أنماط العدول التي تندّ عن الحصر ، وليس في مقدور باحث حصرها ، ولا الكشف عن أسرار كل نمط منها إلا بمقدار ما يفتح الله له ، ويهيّئ له من أدوات التعامل مع النص القرآني ، ولا يزال عطاء القرآن مستمرًا برغم اختلاف الزمان والمكان والظروف ؛ لأن فيه من الخصائص وأوجه الإعجاز ما يجعله قادرًا على استثارة العقول في مختلف العصور ، ومنجمًا يُستخرج منه كثير من النفائس .

٨- تتحدد الوظيفة التعبيرية/ الجمالية لأي عدول تبعًا للسياق الذي يرد فيه ، لأن العدول – كما سبق أن ذكرنا – يتعلق بشكل أساسي بالمقصد المعنوي ، والسياق هو الحارس الأمين على المعنى .

٩- ومن نافلة القول أن نذكر أن النظم القرآني لم يعدل عن مقتضى الظاهر في التركيب اللغوي مراعاةً للفاصلة دون مراعاة المعنى ، ولكن يجب أن نعلم أولاً وقبل كل شيء أن المعنى هو الذي فرض هذا العدول عن المقتضى ، وكانت موسيقى الفاصلة نتيجة من نتائج الوفاء بالمعنى . إذن فلا عجب أن يراعي القرآن ذلك الجانب المؤثر لأنه نزل بلغة العرب ، وجرى على ما يستحب العرب من موافقة المقاطع ومراعاة التناسب. ولهذا أتت لغة القرآن محافظة على ذلك التناسب الصوتي – في كلماته وجمله ومقاطعه ومفاصله – ببعض الترخيصات اللغوية – كالحذف أو الزيادة أو التغيير في بنية الكلمة – وببعض صور العدول عن الأصل ، كتقديم كلمة ، أو تأخير أخرى أو إيثار صيغة على أخرى مما يثبت أن العطاء الموسيقي مراعى بجانب العطاء اللغوي وموضوع في مقابله . وكأن للحفاظ على التناسب الصوتي في القرآن قيمة أكبر

من الحفاظ على بعض العلاقات الجزئية ما دام الترخص فيها لا يشكل غموضًا أو التباسًا أو إخلالاً بالمعنى والذهاب ببلاغته .

والقرآن الكريم حافل بالأساليب العدولية التي تحل فيها علاقة عقلية أو فنية محل العلاقة الأصلية العرفية فيئول الكلام إلى أحد الأساليب البيانية العدولية (وكل أساليب البيان عدولي) .

١٠- **وخلاصة القول** : أرى أن الأسلوب العدولي باعتباره ظاهرةً مميزةً للخطاب الإبداعي ، إنما هو أساسًا درب من التحرير لغاية توفير أكثر ما يمكن من ضمانات تعدد القراءة . وفي رأيي أن ربط ظاهرة العدول بفكرة القراءة يمكن أن يفيدنا في تعميق القضية وفي درسها ، وفي فهم تخصصها بالنصوص الإبداعية .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية والمترجمة :

الاتجاه الأسلوبي في النقد . د/ شفيع السيد . دار الفكر . القاهرة . ١٩٨٦م .

الإتقان في علوم القرآن . للحافظ جلال الديون السيوطي . تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة العامة للكتاب . ١٩٧٤م .

أثر النحاة في البحث البلاغي . د/ عبد القادر حسين . دار نهضة مصر . ط١. ١٩٨٥م .

الأزهية في علم الحروف . الهروي النحوي . تح/ عبد المعين الملوحي . مطبوعات مجمع اللغة العربية . دمشق . ١٩٨١م .

أسرار البلاغة . عبد القاهر الجرجاني . تصحيح/ محمد رشيد رضا . مكتبة القاهرة . ط٦ ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩م .

أسرار التكرار في القرآن . الكرماني . تح/ عبد القادر عطا . دار الاعتصام . القاهرة . ١٩٧٧م .

أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية . ، د/ حسن طبل . ط١ ١٩٩٠م .

الأسلوبية والأسلوب . د/ عبد السلام المسدي . الدار العربية للكتاب . ط٢ ١٩٨٢م .

الأصول (دراسة أبيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب) . د/ تمام حسان . الهيئة المصرية . ط ١٩٨٢م .

أصول البلاغة . كما الدين ميثم البحراني . تحقيق د/ عبد القادر حسين . دار الثقافة . الدوحة . ط١ . ١٩٨٦م .

الأصول البلاغية في كتاب سيبويه . د/ أحمد سعد . مكتبة الآداب . ط١ . ١٩٩٩م .

الإعجاز البلاغي في تراث أهل العلم . د/ محمد أبو موسى . مكتبة وهبة . ط١ . ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .

الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق . د/ عائشة عبد الرحمن . دار المعارف . القاهرة . ط٢ . ١٩٨٧م .

إعجاز القرآن « **الإعجاز في دراسات السابقين** » . عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي . القاهرة . ط١ . ١٩٦٤م .

إعراب القرآن « المنسوب إلى الزجاج » . تح/ إبراهيم الإبياري . دار الكتاب المصري . ط٢ . ١٩٨٢م .

الأقصى القريب في علم البيان . زين الدين بن عمر التنوخي . مطبعة السعادة. القاهرة . ط١ . ١٣٢٧هـ .

الإكسير في علم التفسير . للطوفي سليمان بن عبد الكريم الصرصري البغدادي . تحقيق د/ عبد القادر حسين . دار الأوزاعي . بيروت . ط٢ . ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م .
الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية . د/ أحمد ويس . كتاب الرياض . ع١١٣ . مؤسسة اليمامة الصحفية بالرياض . ٢٠٠٣م .
الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال . لأحمد بن المنير . مكتبة الحلبي . القاهرة . ط ١٩٧٢ م .
الإيضاح في شرح تلخيص المفتاح . الخطيب القزويني . تحقيق د/ عبد المنعم خفاجي . دار الكتاب اللبناني . ط٤ . ١٩٧٥م .
البديع في نقد الشعر . لأسامة بن منقذ . تحقيق د/ أحمد بدوي وحامد عبد المجيد . مطبعة مصطفى الحلبي . ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م .
البرهان (في توجيه متشابه القرآن) **.** الكرماني . تح/ السيد الجميلي . طبعة الأزهر. الجزء الأخير . ذي الحجة ١٤١٤هـ
البرهان في علوم القرآن . الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي . تح/ محمد أبو الفضل . دار المعرفة . بيروت . ط٢ ١٩٧٢م .
البرهان في وجوه البيان . ابن وهب الكاتب . تحقيق د/ حفني شرف . مكتبة الشباب . ١٩٦٩م .
البلاغة العربية « قراءة أخرى » **.** د/ محمد عبد المطلب . الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان . ط١ . ١٩٩٧م .
بلاغة العطف في القرآن الكريم « دراسة أسلوبية » **.** د/ عفت الشرقاوي . دار النهضة العربية . بيروت . ط١ . ١٩٨١م .
بناء لغة الشعر . جون كوين . ترجمة د/ أحمد درويش . مكتبة الزهراء . القاهرة . ١٩٨٥م .
بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) **.** الخطابي . تحقيق د/ زغلول سلام ومحمد خلف الله . دار المعارف . القاهرة . د . ت .
البيان في روائع القرآن . د/ تمام حسّان . عالم الكتب . القاهرة . ط١ . ١٩٩٣م
بين البلاغة والأسلوبية . د/ محمد عبد المطلب . مكتبة الحرية الحديثة . ط١ . ١٩٨٤م .
تأويل مشكل القرآن . ابن قتيبة . شرحه ونشره السيد أحمد صقر . المكتبة العلمية . بيروت . ط٣ . ١٩٨٨ م .
تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعي . دار الكتاب العربي . بيروت . ط٢ . ١٩٧٤م .
تحولات البنية في البلاغة العربية . د/ أسامة البحيري . دار الحضارة للطباعة والنشر . ط١ . ٢٠٠٠م .

التعبير القرآني . د/ فاضل صالح السامرائي . جامعة بغداد . بيت الحكمة . ط١ . ١٩٨٧م .
التعريفات . السيد الشريف الجرجاني . تحقيق د/ عبد المنعم الحفني . دار الرشاد . ط١ . ١٩٩١م .
اتلخيص البيان في مجاز القرآن . الشريف الرضي . تح/ علي مقلد . مكتبة الحياة . بيروت . ١٩٨٦م .
التوقيف على مهمات التعاريف . المُناوي . تحقيق د/ رضوان الداية . دار الفكر المعاصر . بيروت . ط١ . ١٩٩٠م .
ثنائية الشعر والنثر في الفكر النقدي . د/ أحمد ويس . منشورات وزارة الثقافة . سلسلة الدراسات الأدبية . دمشق . ط١ . ٢٠٠٢م .
جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم . د/ محمد عبد المطلب . الشركة المصرية . العالمية للنشر . لونجمان . ط١ . ١٩٩٥م .
جماليات الأسلوب والتلقي . د/ موسى ربابعة . مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية . الأردن . ط١ . ٢٠٠٠م .
جماليات الالتفات . د/ عز الدين إسماعيل ضمن « قراءة جديدة لتراثنا النقدي » . المجلد الآخر . النادي الأدبي الثقافي بجدة . ١٩٨٨م .
الجنى الداني في حروف المعاني . المرادي . تح/ طه محسن . دار الكتاب . الموصل . العراق . ١٩٧٦م .
جواهر الأدب في معرفة كلام العرب . علاء الدين الإربلي . تحقيق د/ حامد نيل . مكتبة النهضة المصرية . ط١ . ١٩٨٤م .
جوهر الكنز . مجدي الدين بن الأثير . تح/ زغلول سلام . منشأة المعارف الإسكندرية . ط١ . ١٩٨٣م .
حلية المحاضرة في صناعة الشعر . الحاتمي . تحقيق د/ جعفر الكياني . دار الرشيد للنشر . العراق . ١٩٧٩م .
الخصائص . لابن جني . تح/ محمد علي النجار . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ط٣ . ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م .
دلائل الإعجاز . للإمام أبي بكر عبد القاهر الجرجاني . تعليق محمود شاكر . مكتبة الخانجي . القاهرة . ١٩٨٤م .
دلالات التراكيب . د/ محمد أبو موسى . مكتبة وهبة . القاهرة . ط١ . ١٩٧٩م .
ديوان امرئ القيس . تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . القاهرة . ط٤ . ١٩٨٤م .
الرسم القرآني بين التوقيف والاصطلاح . خالد المحجوبي . الدار العالمية . الجماهيرية الليبية . د . ت .
السبعة في القراءات . ابن مجاهد . تحقيق د/ شوقي ضيف . دار المعارف . مصر . ط٢ . ١٩٨٠م .

شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب . ابن هشام . تح/ ح. الفاخوري . دار الجيل . بيروت . د . ت .
شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان . جلال الدين السيوطي . مطبعة الحلبي . القاهرة . ط١ . ١٩٣٩م .
الصاحبي في فقه اللغة . لابن فارس . تح/ أحمد صقر . مطبعة الحلبي . القاهرة .
الصناعتين . لأبي هلال العسكري . تحقيق د/ مفيد قميحة . دار الكتب العلمية . بيروت . ١٩٨١م .
الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز . ليحيى بن حمزة العلوي . دار الكتب العلمية . بيروت .
العدول أسلوب تراثي في نقد الشعر . د/ مصطفى السعدني . منشأة المعارف بالإسكندرية . ط١ . ١٩٩٠م .
العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ابن رشيق القيرواني . تح/ محي الدين عبد الحميد . دار الجيل . بيروت . ط٥ . ١٩٨١م .
عروس الأفراح . بهاء الدين السبكي « ضمن شروح التلخيص » . مطبعة الحلبي. ط١ . ١٣٣٧هـ .
علم الأسلوب « مبادئه وإجراءاته » . د/ صلاح فضل . النادي الأدبي بجدة . ط٣ . ١٩٨٨م .
الفاصلة القرآنية بين المبنى والمعنى . د/ عيد شبايك . دار حراء . القاهرة . ط١ . ١٩٩٣م .
فقه اللغة وسر العربية . لأبي منصور الثعالبي . تعليق/ خالد فهمي . مكتبة الخانجي . القاهرة . ١٩٩٨م .
الفتوحات الإلهية (بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية) . الجمل (ت١٢٠٤هـ) . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٩٩٦م .
فلسفة الجمال في البلاغة العربية . د/ عبد الرحيم الهبيل . الدار العربية للنشر والتوزيع . القاهرة . د . ت .
القاموس المحيط . الفيروزابادي . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ط ١٩٧٨م .
القرآن (محاولة فهم عصريّ) . د/ مصطفى محمود . دار المعارف . القاهرة . د . ت .
قضايا النقد الأدبي . د/ زكي العشماوي . درا النهضة العربية . بيروت . ط١ . ١٩٨٤م .
الكتاب . سيبويه . تح/ عبد السلام هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة . ط٢ . ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
لسان العرب . ابن منظور . دار المعارف . القاهرة (ستة أجزاء) .
اللغة . فندريس . تر/ عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص . مكتبة الأنجلو . القاهرة . ١٩٥٠م .

اللغة العربية معناها ومبناها . د/ تمام حسان . الهيئة المصرية للكتاب . ط٢ . ١٩٧٩م .

اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي . د/ شكري عياد . انترناشيونال بِرس . ط١ . ١٩٨٨م .

اللغة والإبداع الأدبي . د/ محمد العبد . دار الفكر للدراسات والنشر . القاهرة . ١٩٨٩م .

اللغة والمعنى والسياق . جون لايمز . تر/ عباس صادق . دار الشئون الثقافية. بغداد ١٩٨٧ .

مجاز القرآن . أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي . تحقيق د/ محمد فؤاد سركيس. مكتبة الخانجي . القاهرة . طبعة سنة ١٩٨٨م .

المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها . ابن جني . تح/ علي النجدي ناصف وآخرين . القاهرة . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ١٣٨٦هـ .

المحكم . لابن سيدة . تح/ مصطفى السقا . د/ حسين نصار . مطبعة الحلبي . ط١. ١٣٧٧هـ /١٩٥٨ م .

المزهر في علوم اللغة وأنواعها . جلال الدين السيوطي . تح/ محمد جاد المولى وآخرين . دار إحياء الكتب العربية . مطبعة الحلبي بمصر .

مع القرآن في دراسة مستلهمة . علي النجدي ناصف . دار المعارف . القاهرة . ١٩٨١م .

معالم الكتابة ومغانم الإصابة . ابن شيث القرشي . دار الكتب العلمية . بيروت ط١ . ١٩٨٨م .

معاني القرآن . لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء . تحقيق د/ عبد الفتاح شلبي . مراجعة . د/ علي النجدي . الدار المصرية للتأليف والترجمة . د. ت .

معترك الأقران في إعجاز القرآن . للحفاظ جلال الدين السيوطي . تح/ علي محمد البجاوي . دار الفكر العربي . طبعة سنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م .

معجم المصطلحات البلاغية وتطورها . د/ أحمد مطلوب . مكتبة لبنان . بيروت . ط٢ . ١٩٩٦م .

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقي . مؤسسة جمال للنشر . بيروت . د . ت .

مفتاح العلوم . د/السكاكي . مطبعة الحلبي . ١٩٣٧ م .

المفردات في غريب القرآن . الراغب الأصفهاني . تح/ محمد كيلاني . مطبعة الحلبي . الطبعة الأخيرة ١٩٦١م .

المقابسات . أبو حيان التوحيدي . تح/ السندوبي . المكتبة التجارية . القاهرة . ط١ . ١٣٤٧هـ .

المقتصد في شرح الإيضاح . عبد القاهر الجرجاني . تح/ كاظم المرجان. بغداد . دار الرشيد . ١٩٨٢م

مقدمة تفسير ابن النقيب . لأبي عبد الله البلخي الحنفي الشهير بابن النقيب والمطبوع خطأ بعنوان : « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » لابن القيم الجوزية . د/ زكريا سعيد . مكتبة الخانجي . القاهرة . ط١ . ١٩٩٥م .

المقنع في رسم مصاحف الأمصار . أبو عمرو الداني . تح/ محمد الصادق قمحاوي . مكتبة الكليات الأزهرية . القاهرة . ط ١٩٧٨م .

من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم . د/ محمد الخضري . مكتبة وهبة. القاهرة . ط١ . ١٩٨٩م .

من قضايا النقد والبلاغة . د/ توفيق الفيل . مكتبة الشباب . القاهرة . ١٩٨٠م .

مناهج البحث البلاغي في الدراسات العربية . د/ عبد السلام عبد الحفيظ . دار الفكر العربي . القاهرة . د . ت .

مناهل العرفان في علوم القرآن . محمد الزرقاني . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٩٨٨م .

النحو والدلالة . د/ محمد حماسة . دار غريب . القاهرة .

النص القرآني (**من الجملة إلى العالم**) . د/ وليد منير . المعهد العالمي للفكر الإسلامي . القاهرة . ط١ . ١٩٩٧م .

نظرية اللغة في النقد العربي . د/ عبد الحكيم راضي . مكتبة الخانجي . ط١ . ١٩٨٠م .

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور . برهان الدين البقاعي . ط دار الكتب العلمية . ١٩٩٥م .

النقد الجمالي وأثره في النقد العربي . روز غريب . دار الفكر اللبناني . ط٢ . ١٩٨٣م .

الوساطة بين المتنبي وخصومه . القاضي الجرجاني . تح/ علي البجاوي وأبو الفضل إبراهيم . مكتبة الحلبي . ١٩٦٦م .

يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . الثعالبي . تح/ مفيد قميحة . دار الكتب العلمية . بيروت . ط٢ . ١٩٨٣م .

ثانيًا : كتب التفاسير :

إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) . القاضي البيضاوي . المطبعة العثمانية . ط١ . ١٣٠٥هـ .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) . القاضي البيضاوي . المطبعة العثمانية . ط١ . ١٣٠٥هـ .

البحر المحيط (تفسير أبي حيان) . لأبي حيان التوحيدي . تح/ الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٩٩٣م .

بصائر ذوي التمييز (تفسير الفيروزابادي) . تح/ محمد النجار . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . نهضة مصر بالقاهرة . ط٢ . ١٩٨٦م .

التفسير البيـاني . د/ عائشة عبد الرحمن . دار المعارف بمصر . ط١ . ١٩٦٢

تفسير التحرير والتنوير . للطاهر بن عاشور . الدار التونسية للنشر . د . ت .

الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) . لأبي عبد الله القرطبي . دار الكتب العلمية . بيروت . ط١ . ١٩٨٨م .

جامع البيـان في تفسير القرآن (تفسير الطبري) . لابن جرير الطبري ، وبهامشه تفسير النيسابوري . دار الريان للتراث، القاهرة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

روح المعاني (تفسير الألوسي) . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط١. ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م .

غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري) . نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري . بهامش تفسير الطبري . طبعة دار الريان للتراث . ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م .

الكشاف (تفسير الزمخشري) . مكتبة الحلبي . القاهرة . الطبعة الأخيرة . ١٩٧٢م .

المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية) . تح/ الرحالي الفاروق ورفاقه . مؤسسة العلوم . الدوحة . ط١ . ١٩٧٧م .

مفاتيح الغيب (تفسير الفخر الرازي) . دار الفكر . بيروت. ط٣ . ١٩٨٥م.

ثالثًا : أبحاث الدوريات :

الأسلوبية الحديثة . د/ محمود عياد . مقال في مجلة « فصول » المجلد الأول . العدد الثاني . يناير ١٩٨١/١٩٨٢ م .

برنامج قالون . الإصدار ١,٠ – رمضان ١٤٢١ هـ .

تحليل الرسم القرآني . دراسة عرضها د/ أحمد إبراهيم البعثي . أهرام الجمعة ٢٠٠٠/١٢/١٠ .

خصوصيات الرسم العثماني . د/ عبد العزيز المطعني . مجموعة مقالات متسلسلة في مجلة منبر الإسلام .

اللغة ودلالاتها . محمد سويرتي . مجلة عالم الفكر . م ٢٨ . ع ٣ . يناير - مارس /٢٠٠٠م .

اللغة المعيارية واللغة الشعرية . موكاروفسكي . تر/ ألفت كمال الروبي . مجلة فصول . مج ٥. ع١ . ١٩٨٥م .

رابعًا : المراجع الأجنبية :

Four Quartets. Eliot (T. S) Faber and Faber . London ١٩٤٤ .

Theory of Literature .Wellek, Rene/ Warren, Austin, Penguin Books . Great Britain ١٩٨٢ .